المرحـــلة الثالثة

التوغل بالمعنى الحقيقي (١٩٠٢-١٩١٠)

١- كُبولاني والتوغل السلمي ١٩٠٢- ١٩٠٥

٢ - الهدوء وهجوم البيضان ١٩٠٦ – ١٩٠٨

٣- غورو وغزو آدرار والسلم ١٩٠٩

١- كُبولاني والتوغل السلمي
الترارزة (١٩٠٣) – البراكنة (١٩٠٤) – تكانت (١٩٠٥)

إن سلسلة الاغتيالات والحروب الداخلية التي ضمّخت الترارزة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي كان مقتل محمد الحبيب إشارة البدء لها، أشاعت في البلاد جوا من الامتعاض جعل تدخلنا سنة ١٩٠٢ لدى محبي السلم والنظام أمرا مرغوبا فيه.

وقد كنا إلى ذلك الحين نتفادى التدخل المباشر في الفتن القائمة بين المحاربين، وقد كان توغلنا إلى النيجر أسرع بكثير منه إلى موريتانيا، في بلد أكثر أهمية من موريتانيا التي أظهرت الاستكشافات وخاصة استكشافات *Vincent* وبو المقداد أنها بلد فقير. وأثناء ذلك فمحميّنا الأمير أحمد سالم الذي هُوجم ونهب من قبل بن عمه سيد مرتين يضطر إلى اللجوء إلى دكانا تحت حمايتنا (نوفمبر ١٩٠١ فبراير ١٩٠٢). وقد تأثرت من هذه الوضعية تجارة الصمغ التي كانت فيما قبل مزدهرة. فالمحطات تصحرت، والحركة التجارية ضئيلة، والقوافل مترددة في المغامرة وسط هذه العصابات المتحاربة.

والاتفاقيات الموقعة مع الأمراء لم تعد أبدا محترمة إلا من قبلنا نحن،وشيوخ البيضان الذين تعهدوا بالتوقف عن أي غارة ضد أتباعنا ومعاقبة أعمال السرقة والنهب التي يتعرض لها مواطنوا الضفة اليسرى للنهر وضمان حرية التجارة وحماية المحطات وتأمين

طرق القوافل والسماح لسودان السنغال بالقدوم إلى الضفة اليمنى للنهر مقابل دفع رسوم مُعيَّنة؛ هؤلاء الشيوخ لم يلتزموا بأي من هذه الالتزامات بل إنهم كانوا - ولدينا الأدلة – يشجعون السرقة والنهب إذا كان لهم فيه مصلحة. وكان سكان الضفة اليسرى ومزارعوا الضفة اليمنى دائما مرهقين، وكان الإداريون يستقبلون في هذا الصدد شكاوى لا تنتهي. وأخيرا وشيئا فشيئا مع تناسي حدة الدروس القاسية التي لقّنها فيدرب لشيوخ البيضان، تزايدَ الفخر والطغيان لديهم. فالشيخ المسن بكار أمير إدوعيش المتكبر، لأنه يرى نفسه في مأمن بين صخوره في تكانت، أعلن عندما علم بتخفيض الرسوم التي كانت تُعطى له: " إن الفرنسيين يتمردون وسنكون ملزمين بمعاقبتهم".

هذه الوضعية التي لا تتلاءم مع شرفنا لا يمكن أن تستمر. فيرى الحاكم العام *M Roume* بأن الوقت قد حان لإعطاء سياستنا اتجاه هذه القبائل البيضانية توجها جديدا ومختلفا فيما يبدو عما كان قائما حتى الآن.

ويشير إلى وجود أخطاء جسيمة في إجراءات عمليّاتنا إزاء القبائل الرحل في وسط النيجر وأعالي السنغال من جهة، وتلك القبائل الموجودة في أسفل السنغال من جهة أخرى. بينما نمارس سلطة مباشرة وفعالة في الحوض وأزواد على سكان هذه النواحي التي يدفع لنا أصحابها الضرائب كتعبير مادي عن خضوعهم.

ونبدوا وكأننا غير مهتمين بأولئك ونتركهم يعرقلون التجارة وينهبون القوافل دون عقاب، من باب أحرى أن نلزمهم دفع الضرائب. بل نتعهد بموجب اتفاقيات أن ندفع لهم ضرائب يعتبرها شيوخهم جِزْية تؤخذ من غير المسلمين. ويقودنا اهتمامنا بالحفاظ على هيبتنا التي هي الشرط الأساسي لنفوذنا في الأصقاع الصحراوية واهتمامنا بتنمية علاقاتنا التجارية، إلى التفكير في تغيير متدرج دون إحداث ضجة في الحالة الراهنة للأمور. لقد اكتمل غزو السودان وكافة جيوشنا في إفريقيا الغربية لم تعد مشغولة من هذه الناحية. فالفرصة إذن تبدو مناسبة للقيام بجهد حقيقي في أرض البيضان واتخاذ موطئ قدم بصفة نهائية في الضفة اليمنى للنهر، من أجل إرساء السلام وحرية التجارة. وكنا نعتمد في تسهيل عملنا على الدعم المعنوي الذي تمنحنا إياه صداقتنا النفعية المكتسبة مع المرابطين الكبيرين الشيخ سيديا والشيخ سعد بوه، الذين كانت مصلحتهما كبيرة في البقاء على حسن العلاقات معنا. فقد كان المصدر الوحيد لدخل هذين الرجلين المقدسين يتمثل أساسا في جولات جمع مربحة يقومان بها دوريا بإذن منا لدى مريديهم السود في السنغال، وعند عودتهم إلى بلاد البيضان تسمح لهم حصيلة هذه الجولات بأريحية وسخاء يساعد كثيرا في الحفاظ على النفوذ وتنميته. وكذلك قبائل الزوايا الذين أتعبتهم الحروب المتجددة بين مختلف فصائل المحاربين، والتي يدفع هؤلاء غالبا ثمنها، وأنهكهم عدم الأمن الذي يخيم على البلاد ويعرقل النشاط التجاري،

فأظهروا استعدادهم لمساعدتنا خلال عملية التدخل التي يرونها حدثا سعيدا، وقد كنا من جهة أخرى نحاول أن نستفيد من المنافسة التي لا تُقسم في هذا البلد فقط مختلف القبائل؛ ولكن أيضا أعضاء الأسرة الواحدة من قبيلة الأمير. فقررنا إذن أن النشاط الدبلوماسي يكفي وحده، وأن استعمال القوة يكون فقط للحافظ على البعثة السلمية ويكون الاحتلال بعد خضوع الإقليم للدبلوماسية السلمية. كوبولاني هذا الوجه الكبير والمعروف في تاريخ التوغل الفرنسي في موريتانيا كان معروفا بدراساته الإسلامية، وكان مرة مكلفا بمهمة في السودان.

وتم تكليفه سنة ١٨٩٨ بالتفاوض مع قبائل البيضان والطوارق القاطنين شمال السودان الفرنسي، والقيام بدراستهم من وجهة النظر السياسية والدينية وجعلهم يعلنون خضوعهم بطريقة سلمية. وكان عليه أيضا أن يدرس الإسلام والطرق الصوفية الموجودة في إفريقيا الغربية من أجل دعم احتلالنا للمناطق التي تم احتلالها أخيرا، والسماح لنا بتوسيع مجال عملياتنا في الأقاليم التي لاتزال تستعصي علينا، وخاصة الأقاليم الصحراوية. وهذه مهمة صعبة فبيضان الساحل كانوا على نزاع مألوف مع مواطنينا السود وكانوا ينهبون القوافل التي تمر في متناولهم، بالرغم من نقاط المراقبة المتقدمة. وقد كنا نطلب من البيضان دفع رسم يدعى (غفر) بينما كان بيضان الغرب يتقاضون منا لغاية هذا اليوم رسوما عرفية مهمة.

وكان هدف كوبولاني الأول هو مسالمة أولاد علوش ومشظوف. ودارت المفاوضات ببطء وحذر بواسطة الرسائل والرسل فأعلن أولاد علوش خضوعهم أولا ثم بعد ذلك بقليل حضر المختار شيخ مشظوف إلى حي كوبولاني، فقدم هذا الأخير عرضا طويلا عن دور فرنسا الإنساني في العالم الإسلامي والدور الذي تزمع القيام به في أرض البيضان، وبعد ذلك بشهرين دفع مشظوف لمركز كومبو رسم الحرب، فقد كانوا يطالبون بدفعه منذ سنتين من دون طائل. فكان قبائل الحوض الذين حُظوا بثقتنا يتقربون من مراكزنا ويُرتعون مواشيهم في الأقاليم التي نحتلها.

وقد تم ابتعاث رسل إلى ولاته وتيشيت وآدرار، وفي سنة ١٨٩٩ كانت القبائل البيضانية الأساسية التي تقطن مناطق النفوذ السوداني قد أعلنت خضوعها وأصبحت ملزمة بدفع رسوم الانتجاع و"العشور" أو رسم المرور. فاستطاعت دبلوماسية كوبولاني لمهيأة والمدعومة بعمليات ضباط من الساحل أن تضع حدا لهذه الوضعية الصعبة دون مقاومة ولا قتال. ثم ذهب كوبولاني إلى بلاد الطوارق مصحوبا بمساعده أرنو*R.Arnaud* فوصل إلى تومبكتو ثم بانبا ثم زار قبائل الرحل في إقليم آزواد.

وبعد عودته إلى فرنسا أقنع كوبولاني وزير المستعمرات الفرنسي بتبني خطة عملية اتجاه مجموع السكان البدو الرحل الذين يُعنى بهم الحاكم العام في السنغال؛ البيضان والطوارق . وفي نهاية دجمبر ١٨٩٩ قرر وزير المستعمرات تكليف الحاكم العام في إفريقيا الغربية

بالقيام بدراسة الشروط العملية لتنظيمٍ يجمع في مُكونة مستقلة، كافة الأقاليم التي يسكنها البيضان من الضفة اليمني للنهر إلى خاي، إلى تومبكتو، إلى الجنوب الجزائري وإلى تخوم المغرب.

هذه المكونة الإقليمية ستحمل اسم موريتانيا الغربية وسيُعيّن عليها كوبولاني مقيما، وبدئ في تنفيذ هذا المشروع من خلال إنشاء قسم شؤون الأقاليم المسلمة والصحراوية في وزارة المستعمرات حيث استدعى كوبولاني.

وقد أوردت وزارة الشؤون الخارجية بعض التحفظات على هذا المشروع بسبب الحالة الدولية لبعض المواقع الإقليمية المحصورة فيما سيعرف بموريتانيا الغربية وخاصة الحقوق الإسبانية في وادي الذهب والتي لم يتم تحديدها بعدُ. ولكن في تلك الأثناء أجرت الحكومة الفرنسية مفاوضات مع الإسبان وتم وضع الحدود لهذه الأقاليم بموجب الاتفاقية الموقعة بتاريخ ٢٧ مايو ١٩٠٠، حيث يشكل الخط الحُدودي مُنحنى حول سبخة الجل التي أبقيتْ لفرنسا، ولكن ملح الجل الذي يمر بالأقاليم الإسبانية لا يمكن أن يخضع لأي رسم من رسوم التصدير. وفي المقابل اعترف للإسبان بحق الصيد في *La bais du Lévrier*.

وتضمن اتفاق ١٩٠٠ للأسف نقصا كبيرا ظل يُنقض كاهل سياستنا في موريتانيا، حيث لم يتطرق هذا الاتفاق في شيء إلى مساعدة إحدى الدولتين الجارتين للأخرى ضد عمليات النهب التي يلجأ أصحابها بعد قيامهم بالأعمال الإجرامية إلى أقاليم هذه أو

تلك، كما لم يتطرق إلى احتمال بقاء بعض الأقاليم التابعة لهذه أو تلك غير خاضعة. وعليه يكون للدولتين الموقعتين للاتفاق الحق في متابعة ومعاقبة المهاجمين الذين يبحثون عن الملجأ في الأقاليم التي لم تخضع بعدُ من أقاليم الدولة الجارة.

ذلك أن إسبانيا لم تحتل قطُ من إقليم وادي الذهب إلا مواقع على الشاطئ، ولم تكن لها فيما يبدو نية في التوغل إلى الداخل، واكتفت حتى عام ١٩١٦ بالتمسك بموقع على الشاطئ في شبه جزيرة الداخلة، وهو المركز الصغير الذي يدعى *Villa-Cisneros* الذي لم يكن يشتمل إلا على حامية من المشاة. وفي سنة ١٩١٦ احتلت موقعا آخر على الشاطئ هو الطرفاية وأخيرا أسست مركزا غير بعيد من انواذيبو لحماية منشئات الصيد.

وإمكانيات إسبانيا للسيطرة على الأقاليم الداخلية من مستعمرتها الواسعة،[١] تعتبر معدومة، وكل الطلبات التي نتقدم بها إلى إسبانيا من أجل الحصول على حق المطاردة ظلت بدون جواب. فكان إقليم وادي الذهب يشكل الملجأ الأساسي للغزاة الذين يأتون فينبهون في التخوم الصحراوية من المحيط إلى إقليم تومبكتو.

فهذا الجوار الخطير كان مبعث اهتمام كبير للأقاليم الأكثر قربا منه، أي موريتانيا، ذلك أن هذه العصابات الإجرامية يمكنها أن تنتظم في الخفاء وفي مأمن وراء الحدود، وتهجم علينا بصورة

---

(١) إقليم وادى الذهب يمكن أن يقاس بألف كلم طولا في ٣٠٠ كلم عرضا في المتوسط.

مفاجئة، ثم تلجأ في أقاليم أجنبية قبل أن تتمكن فرقنا الأمنية من ملاحقتهم نظرا لعامل الوقت.

ولا ننسى إضافة إلى ذلك أن هذه الحدود تفصل الإقليمين في اتجاه الطول، فشبه جزيرة رأس الأبيض حيث مركزنا ومؤسساتنا في(انواذيبو) توجد فقط على بعد بضعة كلمترات من إقليم إسبانيا.

وخلال السنوات السابقة على الاتفاقية الفرنسية الإسبانية كان الإنكليز يبحثون عن ضمان حقوقهم على شاطئ الصحراء الغربية، وقد أسسوا لهذا الغرض مؤسسة تجارية في الطرفاية وتنازلوا بعد ذلك عن تلك الحقوق ، واختفت آثار تلك المؤسسة. إلا أن توقيع المرسوم المنشئ لموريتانيا الغربية تأخر بسبب قيام وزير المستعمرات بتحقيقات جديدة، وإعلان الحاكم العام في إفريقيا الغربية مطالبته بإنشاء قسم خاص بأمور البيضان في سان لوس، بهدف تدشين عملية واحدة سلمية متدرجة في سكان الأقاليم البيضانية والصحراوية. ولم تبدأ معاودة الموضوع إلا في سنة ١٩٠٢ على يد لجنة وزارية لشمال وغرب إفريقيا. وخرج كوبولاني بمهمة محددة تجريبية على الأقاليم التي تشكل موريتانيا الحالية.

* * * *

احتلال الترارزة ١٩٠٣

من أجل وضع حد للفوضى السائدة في الترارزة تم تنظيم رتل عسكري في مارس ١٩٠٢ في دكانا تحت قيادة الرائد دلبلان *Delaplane* المكلف بتجديد وإعادة تنصيب الأمير أحمد سالم الذي لجأ إلى حمايتنا أميرا على البلاد. وسُمي هذا الرتل رتل مراقبة الترارزة" وهو مؤلف من فرقه من الرماة وكتيبتين من الفرسان. وضرب مخيمه قرب سهوت الماء حيث كان الأتباع الذين ظلوا أوفياء للأمير يأتون إلى مخيم الرتل. وهرب سيدي نحو البراكنة، ولكن أصحابه بدأوا شيئا فشيئا يغادرونه ويلتحقون بتجمع سهوت الماء. وبما أنه لم يبق معه إلا أفراد قلائل، فقد قرر إعلان الخضوع، لكنه لا يمكن أن يحضر هو بنفسه، فكلف مرشده الشيخ سيديا بالمفاوضة عنه.

وبدا وكأن السلم أصبح مضمونا، ولكن من أجل الاحتياط تم التمسك بعشرين فردا في مركز رهن إشارة الأمير ببلدة كيوه لسد الطرق التي تمر جنوب بحيرة *Cayor* وتصل إلى دكانا.

وقد تم حينئذ وضع الأسس لاتفاقية جديدة مع أحمد سالم تعطينا الحق في قبول تعيين الأمير، والمصادقة عليه، وإنشاء وظيفة مقيم معهم، وإلغاء كافة الرسوم العرفية، وإحلال مكافآت ندفعها باختيارنا محلها.

وأقام أحمد سالم في كركْ على بعد ٢٠ كلم من مركز *Kheo*، ولكن مخيمه بدأ يتناقص، وغادره كثير من المغاضبين، وتشير بعض الأخبار إلى وجود سيدي في مكان قريب من سهوت الماء، وأنه بدأ يجمع المنشقين وأن نياته أصبحت أقرب إلى المناوءة. فقرر أحمد سالم الهجوم وأشعر قائد مركز كيوه، وصمم على ملاقاة سيدى وحدث قتال مريب بين الطرفين. في هذا الوقت تدخل كوبولاني الذي لا يريد أن يتصرف إلا سلميا عن قناعة. فالفكرة الأم لسياسته أن يقدم نفسه على أنه مدافع عن المظلومين، مما مكنه من الحصول على ولاء كثير من قبائل الزوايا(المرابطين).

وفوق ذلك يقول لنا كاتبه كولونباني *Colombani*: فهو ينوي تفكيك التجمعات المعارضة تدريجيا بواسطة العملية السياسية وحدها، والوضعية ممهدة لهذه السياسة التفكيكية، فالقبائل المتشتتة المتنافسة الخاضعة لشيوخ ذوي سلطة ضعيفة لا تربطهم أيّة مصالح عامة محددة، حقوق قديمة ناجمة عن الغلبة أو الحماية تجعل من بعض القبائل أتباعا لمجوعات محاربة أخرى، وبذرة العداء ظلت راسخة وخاصة بين بني حسان الغالبين والغارمين الذين ظلوا يُنهبون ويُسلبون باستمرار. ومن جهة أخرى فالعامل الديني المرابطي ونشاطه الخفي وسلطته القوية ظل دائما في صراع مفتوح مع السلطة التحكمية للمحاربين الذين هم مسلمون بفتور. هذه العناصر المطلوبة والتي يمثلها في موريتانية الواطئة الشيخ سيديا

والشيخ سعد بوه اللذان يتبعان للطريقة القادرية المتسامحة، لا يمكن أن تكون مندفعة ضد توغلنا.

وفي مرحلة تمهيدية بدأ كوبولاتي اتصالاته مع المشايخ الدينيين الأكثر نفوذا مثل الشيخ سيدي والشيخ سعد بوه والشيخ سليمان والعلماء الأكثر شهرة، وضاعف مشاوراته. وبعد مفاوضات شاقة استطاع كوبولاني أن يزيح العقبات واحدة واحدة، وأن يضم إليه المترددين ويقنع مناوئيه؛ كل ذلك بفضل معرفته العميقة بالنفسية المسلمة، وإتقانه للغة العربية وأخيرًا كسب كل أولئك.

وهؤلاء الشيوخ المقدسون هم الذين عند عودتهم إلى أحيائهم يُستخدمون لنشر هذه الأفكار الجديدة وإقناع ذويهم وتلاميذهم بها، ومن ثم إقناع قبائل الزوايا وبعض المحاربين بفكرة الخضوع للسلطة الفرنسية وقبول حمايتها. ومن هنا ـ وهذا حدث فريد في حوليات المسلمين ـ فإن هؤلاء الشيوخ المتدينين هم الذين مهدوا لنا الطريق وأدخلونا إلى موريتانيا.

عرف كوبولاني إذن كيف يكسب ثقة الشيخ سعد بوه وخاصة الشيخ سيديا الذين أحاطهما بكثير من الاعتبار وجعل منهما أصدقاء مخلصين[1]، ويمكن أن نقول إنه بفضل صداقة هذا الأخير(الشيخ

---

(١) تكفي نبرة المحبة والوداد في رسائل هذين الرجلين لتوضيح الصداقة الحارة التي تجمعهما، وقد كتب كوبولاني بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٠٤ للشيخ سيديا ما يلي: إنك تعلم كم أنا فخور بأن أرفع قدرك في عيون المسلمين في هذا البلد، أنت الذي استطعت أن تكسب ثقتي قبل أي كان، وأن تمنحني العون الحقيقي لكي =

سيديا) حصل ما حصل من سرعة وامتداد في إنجاح كوبولاني، وتمكنا من بسط نفوذنا في كافة موريتانيا الجنوبية تقريبا دون قتال.

ويستغل كوبولاني بلباقة كذلك التنافس الذي يقسم قبائل البيضان، ونجح في ضمان مساهمة العديد من المحاربين ، وكذلك قام بمواجهة بين الأميرين المترشحين لإمارة الترارزة أحمد سالم وسيد ولد محمد فال، واستطاع بفضل ذلك التنافس وتلك المواجهة أن يجعل الأول (احمد سالم) يتنازل عن صلاحياته ويقبل الانضواء طوعا تحت حماية الحكومة الفرنسية. وفي السنة الموالية استطاع بسط الحماية على البراكنة على حساب الأمير أحمد بفضل نفس الأساليب والوسائل.

وبعد وصوله إلى دكانه بتاريخ ١٢ دجمبر ١٩٠٢ بدأ كوبولاني مفاوضاته مع أحمد سالم في نفس الوقت الذي كانت فيه فرقة المراقبة التي يقودها النقيب *Sadorge* تتمركز في خليج *GARAK*.

وبعد أن حصل من أمير الترارزة على قبول خضوع هذه الأقاليم لحماية فرنسا مستقبلا، غادر كوبولاني دكانا ومعه الملازم فيي *Feuillu* ومسؤول شؤون السكان المحليين ميشل آنجلي *Michel Angeli* والترجمان الرئيس بوالمقداد ووصل إلى "كيوه" *Khéo*

= يسود السلم في هذا البلد ونظرا للصداقة الحميمة ولمكانتك التي أتعهد بالمحافظة عليها والرفع من شانها، فأنا مستعد للذهاب إلى بلاد الترارزة حيث سأقوم بإعطائك شهادة علنيّة على حسن علاقاتنا بحضور اكبر عدد ممكن من الطلبة والمحاربين. ربير أرنو مختصر في السياسة الاسلامية.

مركز المراقبة، ثم توجه إلى "سهوت الماء نقطة مرور القوافل المعهودة، حيث كلف النقيب سادورجْ *Sadorge* بإنشاء مركز وأصبح هذا المركز فورا محل جذب الأنظار، حيث يأتي الوجهاء من مختلف القبائل الزاوية والمحاربة في الترارزة دوريا للإعلان عن خضوعهم بحضرة الشيخين الكبيرين؛ الشيخ سيديا والشيخ سعد بوه. فقام الشيخ سيديا الذي كسب ثقة كوبولاني بإصدار فتوى تبين بطريق ذكية للمسلمين أن احتلال الفرنسيين لبلاد البيضان نعمة من الله.

ويبذل كوبولاني الذي يحظى بتقدير شخصي كبير من لدن البيضان جهده في طمأنة المواطنين السكان من خلال سياسة مصالحة مرتكزة على مبدأ الاحترام المطلق لعادات ودين هؤلاء الأتباع الجدد.

وبفضل دعم الشيخ سيديا الذي استطاع كوبولاني أن يجعله في صفنا نهائيا، تمكن هذا الأخير من الوصول إلى "خروفة" دون عرقلة، حيث ترك بها مفرزة مكلفة بإنشاء مركز، وحيث استقبل فيها في شهر فبراير ١٩٠٣ سيدي الذي جاء على رأس ٢٠٠ من المحاربين ليعلن خضوعه. وتقدم كذلك إلى أن وصل إلى انواكشوط في ملتقى طرق القوافل القادمة من الشمال، وفكر في إنشاء مركز بها. وقد أنشئ هذا المركز بعد ذلك في شهر دجمبر من قبل النقيب فريرجان *Frèrejean* ثم عاد إلى سان لويس مع شاطئ البحر مصحوبا بشيوخ دينيين ورجال محاربين لتسهيل عودته.

لقد حصلت هذه النتائج الكبيرة دون إطلاق أي رصاصة من بندقية، وذلك بفضل السياسة المستنيرة لكوبولاني والهيمنة الخارقة للعادة التي يمارسها على البيضان، ومع ذلك فإنه يجب أن لا نُخدع في صدق المحاربين البيضان الذين لم يعتبروا أنفسهم في يوم من الأيام ملزمين بتعهداتهم القولية بأنهم موالون، ولدينا أمثلة عديدة على ذلك.

فالحرب والنهب كانا دائما تعبيرهم الوحيد عن نشاطهم، وفي نفس الوقت الوسيلة الوحيدة للعيش، والتنافس والأحقاد الناتجة عن سلسلة طويلة من القتل والنهب، لا يمكن أن تسمح بإقامة سلام طويل المدة. ونحن لا نحتل إلا المنطقة المجاورة للنهر، وما وراء ذلك من البلاد وخاصة آدرار يظل مانحا لمثيري الفوضى، ملجأ آمنا، ولا تسعفنا وسائلنا بمطاردة هؤلاء.

وفي سنة ١٩٠٣ عُين كوبولاني مندوبا للحاكم العام ومكلفا بمهمة في الترارزة. وتشمل صلاحيات المندوب من بين أمور أخرى مراقبة العدالة وتعيين القضاة وجباية الضرائب (وقد ألغيت الرسوم العرفية نهائيا). فكانت هذه في الحقيقة هي مرحلة الاستيلاء الفعلي على البلاد.

وبينما كان كوبولاني في سان لويس يهيئ لبعثة سلمية جديدة في بلاد البيضان، كان إنشاء مراكزنا العسكرية في سهوت الماء نقطة مرور القوافل المعهودة ، وفي خروفه على بعد ٤٠ كلم من المحيط على جانب الطرق المؤدية لآدرار، كان إنشاء هذه المراكز يتتابع

بحيوية مع حصول حوادث عرضية، ذلك أنه مهما تكن براعة وحذر ضباطنا المقيمين المكلفين بإدارة هذا الإقليم ـ وقد برهنوا على ذلك ـ فإنه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار مشاغبة هؤلاء المحاربين ونفاقهم.

وفي ١٦ يونيو ١٩٠٣ باغت الملازم المقيم بسهوة الماء مجموعة من أولاد دمان وفرّق جمعهم لدى بئر شلشو"(١٦ كلم إلى الجنوب من سهوت الماء) وكانت هذه المجموعة جاءت لنهب حي من الزوايا المعلنين خضوعهم.

وفي سبتمبر ارتحل أحمد سالم ـ الذي أعلن قبل دخوله تحت حمايتنا ـ ومعه قومه إلى الشمال، متذرعا حسب قوله بالابتعاد عن منطقة المستنقعات قرب النهر حيث تعرضت مواشيهم لعض البعوض القاتل.

وقد كان في نيته في الحقيقة أن يباغت مركز "أخروفه" ويختطف رجاله، ولكن ملازم الفرسان *Ciccoli* بعث إليه يأمره بالعودة إلى الجنوب، ولم يُلقِ أحمد سالم لذلك أي بال فتجهز الملازم لملاقاته مع ١٧ قناصا و٣٠ فارسا، ولكن أحمد سالم قرر الانشقاق وغادر فورا إلى الشمال وتبعه ٦٠٠ محارب من قومه فلحق الفرسان بمؤخرة جيشه الذي فقد خمسة من رجاله.

فموقف أحمد سالم الذي أصبح مناوئا لنا منحه مباشرة دعما من قبائل الشمال وخاصة العلب وأولاد أبي السباع، فأصبح يدير جيشا

قوامه ألف من المحاربين بينهم مائة وخمسون محاربا مسلحون ببنادق ذات الطلقات السريعة، فغادر كوبولاني فورا سان لويس ومعه النقيب فريجان *Frèrejean* والملازم أبكرل *Abgrall* وخمسة وأربعون قناصا ونزلوا مقابل أنواكشوط، وبدأوا مباشرة في بناء مركز جديد مهمته حماية الأقاليم التي احتُلت من هجمات أهل الشمال، بالإضافة إلى كونه مركزا لدراسة علم الأسماك التي كُلف بها أكريفل *Gruvel*. وغادر كوبولاني إلى سان لويس تاركا في الموضع النقيب فريرجان مخولا صلاحيات حاكم الترارزة الغربية، وتمكن هذا الأخير من بناء مركز انواكشوط قبل أن يجمع أحمد سالم عزمه على مهاجمته. ولكن الانشقاقات داخل معسكر الأمير أحمد سالم وانسحاب أولاد أبي السباع الذين أثرت فيهم دعاية الرسل المبعوثين من قبلنا، كلُ ذلك جعل أحمد سالم يلغي مشروع الهجوم.

واتسمت سنة ١٩٠٤ بسلسلة من المعارك كنا خلالها في مواجهة أولاد أبي السباع المحاربين المشهورين والمسلحين جدا بفضل البنادق التي كان تجارهم يهربونها من سان لويس.

وفي ١٢ مارس تمت مهاجمة فصيلة يقودها الرقيب فيلب من طرف ٢٠٠ من أولاد أبي السباع والرحاحلة عند: التاكلالت" بين سهوت الماء وأخروفة. ودُحر العدو مع الخسارة، وقتل منا قناصان وجرح واحد. وبعد ذلك بقليل شعر النقيب ديهلدا *Duhalde* المقيم بسهوت الماء بنبأ اقتراب غارة من ٢٠٠ رجل من أولاد بسباع،

فتهيأ لملاقاتهم بـ ١٥ من القناصة. وبالرغم من عدم التكافؤ العددي فقد خاض المعارك بصبر، وقُتل ثلاثة من القناصة وجرح اثنان وانسحب النقيب إلى المركز. ولما علم النقيب فريرجان بهذه الأحداث غادر انواكشوط وتمادى في ملاحقة المهاجمين الذين صعدوا إلى الشمال بعد هجومهم على سهوت الماء، وتمكن من اللحاق بالعناصر المتأخرة منهم وكبدهم بعض الخسائر.

وفي شهر أغسطس كلف كوبولاني النقيب كالاه *Galand* بإنشاء مركز بوتلميت لحماية الشيخ سيديا ووكلت تلك الحماية لجزء من الحامية التي كانت عند سهوت الماء. ومن جهة أخرى بعث الملازم *Rosfelder* من ريفسك *Rufisque* ومعه ٧٠ قناصا لدعم مركز سهوت الماء. وفي ١١ مايو هجم على طائفة من أولاد بسباع الضاربين خيامهم قريبا من غابة "كانه" شمال غرب المركز فقتل منهم خمسة أشخاص، وكانت خسائرنا في هذه المعركة ثلاثة قتلى وبعض الجرحى.

وفي بداية سنة ١٩٠٥ انشق سيدي وجذب إليه كثيرا من المناصرين فكان علينا أن نواجه هجومات عديدة من البيضان. وفي شهر فبراير تم سحق جيش كامل تقريبا مؤلف من ١٥٠ رجلا من أولاد ابيير كنا قد سلحناهم لغزو أحياء أولاد بسباع فتحولت كل تلك الأسلحة إلى أيدي الأعداء. وفي تلك الأثناء اغتيل الأمير أحمد سالم لدى بئر "أنواكل" من قبل اثنين من أقرباء سيدي الذي ادعى براءته وشجبه لعملية الاغتيال وأعلن خضوعه ليعود منشقا

بعد ذلك بقليل. وفي الغرب كان علينا كذلك أن نواجه في منطقة انواكشوط هجومات من أولاد بسباع البواسل. وفي " دشونو" تمت مباغتة مفرزة من ١٥ قناصا ليس معهم ضابط أوروبي خلال الليل فقتل منهم أحد عشر شخصا. وفي "توجنين" كان الملازم مونلي *Maulny* يطارد بغلبة مجموعة منشقة تفوقه كثيرا في العدد، تحاول أن تسد أمامه الطريق إلى المركز. فتلقى خلال المعارك رصاصة فقأت عينه.

تُظهر هذه العمليات الصغيرة سلبيات تجزئة الفرق التي من شأنها أن تضاعف حصول فرص العمليات المعزولة وغير المجدية. وفي أسوأ الظروف بالنسبة لنا نحن، وتُظهر سلبيات عدم حركية وحداتنا التي تملي علينا في الغالب مواقف سلبية تجعل الحماية التي ندعى توفيرها للقبائل الخاضعة لنا خدعة.

فاتُخذ قرار بتجميع الفرق في شكل سرايا كاملة، وألحقت مفرزة من الفرسان بوحدات المشاة في انتظار إنشاء وحدات الجمالة التي أصبحت ضرورتها ملحوظة بازدياد كل يوم. وفي نفس الوقت ينفتح البلد على الاستكشافات العلمية، ففي سنة ١٩٠٤ زار كريفال *M.Gruvel* منطقة خليج *Lévrier* وأكد توقعات فيدرب، وأنشأ نقطة عسكرية في هذا الموقع ومركزا للأسماك.

وبعد ذلك بأربع سنوات قام كريفل وشيدو *Chudeau* بدراسة منهجية للمنطقة الحدودية بين سان لويس وخليج *Lévrier* من الناحية الجيولوجية والجغرافية والمصادر السميكة في الشاطئ.

وأكمل شيدو هذه الدراسة سنة ١٩١٠ و١٩١١ باستكشاف منطقة الشمال الغربي لآدرار، حيث حدد خلال هذه الرحلة مواقع المراكز التجارية البرتغالية القديمة في أطابن بين شاطئ المحيط وسبخة الجل.

❋ ❋ ❋ ❋

احتلال لبراكنة ١٩٠٤

وبينما كانت هذه الأحداث تجرى في الترارزة كان كوبولاني يمهد لمتابعة خطته العمليّة التي حددها: احتلال أقاليم البيضان جيبا فجيبا، بمعنى أنه بعد الترارزة، البراكنة ثم تكانت وأخيرا آدرار.

وفي دجمبر ١٩٠٣ تجمعت بعثة كوبولاني في "بوكي": قرية سوداء على ضفة النهر السنغالي اليمني حيث أنشئت نقطة تموين. ووضعت الفرق التي تصاحب البعثة وتسهر على حمايتها تحت قيادة نقيب الخيالة شوفو *Chauveaux* وتشمل:

- ثلاث كتائب من الفرسان

- كتيبة واحدة من القناصة السنغاليين(الملازمان) شيري *Cheruy* وديفور *Dufour*

- مفرزة من الحرس الحدودي(الملازم) أربوكستْ *Arbogast*

- قسم المدفعية الجبلية(الملازم) كوبايْ *Coupay*

- حرس قومي على الخيل(مساعد شؤون السكان المحليين)

وقد كان أمير لبراكنة أحمدُّ ولد سيدي أعلي دائما يعلن عن مواقف حميمة اتجاهنا. وفي شهر يونيو ١٩٠٣ في "بودور" وبحضور الشيوخ الرسميين والمحاربين من المجموعة المتحدة، عدل الأمير عن الاتجاه السياسي للقبائل المجتمعة تحت سلطته، ووضع أقاليمه تحت حمايتها. ولكنه لم يكن يريد إلا معارضة تقدمنا، فانضم في

هذا الهدف إلى أمير تكانت المسن بكار شيخ إدوعيش المعروف بمواقفه المعارضة لفرنسا وقدراته الحربية. وقام هذا الأخير(بكار) الذي جعل من نفسه قلب المقاومة، بإرسال رسل في كل مكان لحث المواطنين على التمرد، حتى نجح في أن يجعل بعض الطلبة(المرابطين) إلى صفه وخاصة اجيجبه.

ووصلت البعثة بعد جهد إلى قريب من "ألاك" على بعد ٩٠ كلم إلى الشمال من "بوكي" وتمت مهاجمتها بغتة ذات صباح قبل طلوع الشمس من قبل عصابة من عدة مئات من البيضان المحاربين، دفعهم الأمير الخائن ضدنا يكتسحون معسكر القوم، يقتلون ثلاثين منهم، ولكن النيران المتراشقة للرماة، والموجهة بدقه أحدثت بين المهاجمين ضحايا كثرا وأرغمتهم على الانسحاب.

وبعد ذلك بأيام وعلى وجه الانتقام، قام النقيب شوفو على رأس مفرزة مؤلفة من كتيبة من الفرسان وقناصةِ الملازم ديفور ورجال من قوم *Rey* بمباغتة حي الأمير أحمدٌّ في "شكار" على بعد ٣٥ كلم إلى الشمال من ألاك.

وخلال رحلة استطلاع أخرى قام بها(النقيب) شوفو مصحوبا بـ ٢٥ من الفرسان و٦٠ من قناصة الملازم شيري وقوم ريْ تمت أيضا مباغتة أحياء إدوعيش في "مال" واستولوا على ٥٠٠ جمل وألف من النعاج.

وفي مال حيث تم وضع حجر الأساس لنقطة عسكرية، ضرب معسكر كبولاني خيمته ليبدأ نشاطه السياسي مع السكان. وإلى الشرق من ذلك أنشأ النقيب كالاه *Galland* مركز"أميت" إلى الشمال من كيهيدي بهدف إكمال سلسلة المراكز العسكرية المخصصة لحماية المناطق الخصبة في ضفاف النهر؛ شمامه.

وفي فبراير ١٩٠٤ وبينما كانت أشغال بناء المركز تجري تعرضت حامية المركز لهجوم من قبل إدوعيش، وبعد مقاومة باسلة قام بها النقيب أربوكست *Arbogast* والملازم أرنود *Arnaud* بحيوية، انسحب البيضان تاركين وراءهم ٣٥ جثة في الميدان. كما أنشئت مراكز عسكرية أخرى في "ابياخ" *Biakh* من قبل م. آدم *M.Adam* ومركز الرقبة من قبل الملازم ابْرِيُو *Briaud*.

وقد قاد الأمير بكار بنفسه الهجوم على مركز أميتْ، ولمعاقبته وطرده من المنطقة انطلق رتل عسكري في مطاردته ولحق به في الشرق قريبا من جرف لعصابة الصخري، ووجد بكار نفسه فورا في ممر "كمال" وأمامه كثير من العراقل وقبائل الزوايا المنمين مواشيهم. وقاده عدم الحزم إلى وضعية مزعجة جدا. وكانت نجاة بكار من الكارثة على يد كوبولاني الذي كان يقود العمليات وأوقف إطلاق النار. وكان عائدُ ذلك اليوم أكثرَ من ١٠,٠٠٠ رأسا من الأنعام ولم تتعد الخسائر قتيلا واحدا وبعض الجرحى.

كانت النتائج مهمة، ذلك أنه ولو كانت العملية غير مثخنة جدا في العدو، ولكنها مكنت على الأقل للعديد من أحياء الزوايا

المغلوبين بالقوة من التحرر والانعتاق والذهاب إلينا لإعلان خضوعهم. كما مكنت من طرد إدوعيش من المنطقة التي نريد تنظيمها. وسهلت كذلك مفاوضات الخضوع مع البراكنة، ومكنتنا أخيرا من الحصول على وسائل لتعويض حلفاءنا في عمليات السلب والنهب التي كانوا عرضة لها خلال السنة الماضية. ولإكمال تنظيم المنطقة كلف كوبولاني م. ديريْ *M. de Rey* بأن يجوب منطقة كوركول الأسود للبحث عن موقع يقام فيه مركز عسكري، وتم اختيار نقطة "امبود" حيث احتلت يوم ٩ مايو من قبل مفرزة سنغالية. وعند عودة البعثة إلى مال استقبلت فصائل منشقة من أبكاك تعلن خضوعها، ووجهاء من إدوعل قادمين من "تجكجة".

وفي يوم ١٠ مايو انتهت المهمة الثانية لكوبولاني وغادر "مال" متجها نحو سان لويس.

فتم تقسيم الأقاليم المحلية من جديدإلي مناطق ثلاث :

-منطقة لبراكنة (مركز ألآك والرقبة)

-منطقة مال(مركز مال واميت)

-منطقة كوركول(مركز امبود)

وخلال الشهور الأخيرة لسنة ١٩٠٤ حصلت مناوشات أخرى، فقد استولى أولاد بسباع على قافلة تحمل الذخائر وعلى قطعان من الماشية لإحدى القبائل الصديقة كما تم صد هجوم ليلي على مركز

الرقبة[1] قام به أولاد دامان على يد الملازم بريو *Briaud* ثم قام النقيب مكلارد *Miquelard*ْ والملازم أربو كستْ *Arbogast* بغزو حي من إدوعيش قريبا من "امبود". ومع تقدم عملياتنا تترسخ شيئا فشيئا سيادتنا ونضع أيدينا على البلاد بمساعدة من السكان أنفسهم. فالقبائل التي منحتنا ثقتها كانت مستعدة لنقل تمويناتنا وتوفير المرشدين والمساعدين المسلحين. وأخذت عملية احتلالنا للبلاد طابعها النهائي من خلال إنشاء سلسلة خطية من المراكز العسكرية في المذرذرة، سهوت الماء، الرقبه وانواكشوط.

وتم تكريس نهاية سنة ١٩٠٤ لتنظيم الأقاليم التي صارت بحوزتنا. وفي ١٨ أكتوبر تُوِّجت الحالة الجديدة بمرسوم يؤسس إقليم موريتانيا المدني، وخُوِّل كوبولاني سلطة مفوض الحكومة العامة في هذا الإقليم.

* * * *

(١) ٣٠ كلم إلى الشمال الشرقي من بودور

المسير نحو تكانت ١٩٠٥

وفي نهاية سنة ١٩٠٤ كانت القبائل الزاوية(المرابطية) تتظاهر بأنها مرتاحة أو غير معنية، وانقادت بعض الفصائل المحاربة كذلك، ولكن أخرى كانت لا تقبل بسلطتنا وتراهن على قصر مدة احتلالنا لجأت إلى مناطق خارج متناول عملياتنا في تكانت وآدرار الذين أصبحا ملجأ لكل المتمردين المنشقين. إلا أن النتائج الممتازة التي حصل عليها كوبولاني بسهولة في المناطق الجنوبية دفعت الحاكم العام إلى الاستمرار في هذا المسعى. وكلف المفوض العام بالمهمة الجديدة في إلحاق تكانت وآدرار بمحميتنا.

ولكن سكان هذه المناطق الذين استقبلوا المتمردين من الترارزة ولبراكنة كانوا محرضين ضدنا، ولم يعد بإمكاننا الاستفادة من مزايا المباغتة. ومن جهة أخرى فهذه المناطق الجبلية الوعرة غير معروفة تماما لدينا، وعليه فلا بد من حد أدنى من الاحتياطات لتمكين البعثة السلمية من التوغل داخل البلاد دون مخاطر.

وأصبحت الوضعية السياسية حينئذ مُعْتمة، ففي الترارزة سيدي وأحمد سالم اصطلحا مؤقتا. وفي تكانت أبكاك واشراتيت ظلوا متحدين ومعارضين، وفي كل مكان تقريبا يتعرض قبائل الزوايا الخاضعون للنهب وليس لدينا ما يكفي من الفرق المتنقلة لنتمكن من توفير حماية فعالة لهؤلاء ضد الأعداء المتعذر إدراكهم ومعاقبة الناهبين. ومفاوضات كوبولاني مع إدوعيش وقبائل آدرار يبدوا أنها لا تعطي أي نتيجة. وسياسته في التفكيك منيت هذه المرة بالإخفاق.

فقط كنته وحدهم يوافقون لأنهم غلبوا وحجموا من قبل إدوعيش، ويأملون أن يجدوا معنا ما يمكنهم من الانتقام، وقد كان أغلبهم لاجئا في الحوض، فعمل كوبولاني على إعادتهم إلى تكانت ليحلوا محل إدوعيش المتمردين فاستجاب شيخهم محمد المختار لنداء كوبولاني فجاء للتباحث معه. ولكنه سبق أن أشرب نفوذ عدونا العنيد مرابط السمارة ماء العينين، فابنه الشيخ حسنه لدى إدوعيش يدعو للمقاومة حتى النهاية.

وقد كان هؤلاء (الشيخ ماء العينين وشيعته) حتى بداية سنة ١٩٠٥ خارج القضية مؤقتا حسب ما يبدو. فانتهز كوبولاني الفرصة لإعادة تنظيم البعثة بهدف المسير نحو الشمال. وقد تم دعم الفرق التي كانت تحت تصرفه بـ:

- فريق من القوم مؤلف من ١٢٠ جزائريا على الجمال والخيل.

- فريق من القوم من السود وأولاد أبي السباع تحت قيادة النقيب فريرجان القادم من أنواكشوط.

- فريق من القوم من أولاد أبيير وتجكانت مساعدةً من الشيخ سيديا لرئيس البعثة تعبيرا عن الصداقة.

وتركزت البعثة التي تم تكوينها في "مال" و"ألاك" يوم ١٥ فبراير ١٩٠٥ لدى "كيمي" ووصلت يوم ١٧ إلى بئر "كيرت" على بعد ٦٠ كلم إلى الشمال الشرقي. حيث علمت أن إدوعيش يتهيأون لصدهم عن دخول تكانت وذلك بالتموقع في ممرات النتوءات الصخرية

التي تشكل حدود هذا الإقليم من الشمال إلى الجنوب. وأحد هذه الممرات وهو "فمُ البطحاء" تتموقع فيه قوة مهمة، ولكن المعلومات الواردة من الممرات الواقعة إلى الشمال تفيد بأنها خالية.

وفي يوم ٢٠ فبراير غادرت البعثة "أكيرتْ" وفي اليوم الموالي عبرت ممر "ديكل" دون مشكلة، حيث وصلت إلى إقليم تكانت بعدما قطعت ٧٢ كلم خلال مرحلتين، وخشي إدوعيش المعسكرين عند "التامورت" أن يكونوا قد أحيط بهم فانسحبوا إلى الجنوب. فكُلف المساعد *Lestre de Rey* ومساعده *M.Mère* بتتبعهم ومراقبتهم بحذر وتقبل الاقتراحات السلمية التي يمكن أن توجهها بعض الفصائل الراغبة في الاقتراب منا. كما كلف الترجمان العسكري *Regnier* بدوره بالاتصال بكنته وحثهم على الدخول في مفاوضات الخضوع معنا. والمساعد دريْ *de Rey* الذي وصل إلى البدر يوم ٢٦ فبراير، ضرب مخيمه هناك واتجه نحو الشرق حيث تشير التقارير إلى وجود حقول للذرة البيضاء ومخازن للغلال، حيث هاجمه في "دركل" عدة مئات من إدوعيش فقتلوا من أفراده ١٣ وجرح هو في فخذه جرحا مثخنا، وتمكن بصعوبة بالغة من العودة إلى معسكره في "البدر" حيث هوجم من جديد بشراسة خلال الليل من قبل قوى بيضانية مهمة ولم يوقفوا القتال إلا بعد أن فقدوا ثلاثين من محاربيهم.

وفي اليوم الموالي تهيأ إدوعيش بقضهم وقضيضهم للهجوم من جديد على معسكر "البدر" لكنهم اصطدموا لدى بلدة "اتويرززيت"

برتل عسكري تمويني قادم من كيهيدي تحت قيادة مسؤول شؤون السكان المحليين *Michelangeli* وفوجؤوا بالعدو يكتسحهم من اتجاه غير منتظر وأوهن عزائمهم إطلاق المدافع الرشاشة التي كان يطلقها *Michelangeli* هو نفسه والذي كبدهم خسائر فادحة فتفرق إدوعيش. وخلال هذه المدة كانت البعثة تواصل سيرها نحو الشمال الشرقي ووصلت إلى قصر البركة ـ حاليا أطلال واحةـ عاصمة قديمة لتكانت أيام هيمنة كنته.

ولما علم كوبولاني بما حصل في "دركل" من قبل إدوعيش الذين بعثوا إليه رسالة وقحة، أمر النقيب فريرجانْ وفرقته بالالتحاق بالمساعد ريْ لمساعدته واستغلال مخازن الغلال لصالح البعثة المهددة بنقص في مواد الغذاء وطرد إدوعيش إلى خارج أرض تكانت. فغادر فريرجان قصر البركة ومعه قوم من التوكولور وأعوان من أولاد أبيير والترارزة، فموَّن في طريقه معسكر البدر وتمادى مشرقا فاستولى على العديد من المخازن المملوكة لإدوعيش بعد ما فرق جمعهم من خلال معركتين في "انكادس" و"تنشيكو".

وفي يوم ١٢ مارس وصل فريرجان مصطحبا معه غنائمه إلى "مشرى" حيث وصلت البعثة للتو ومن ثم تغادر قريبا إلى "الحُسينية". ووصلت معلومات هنا إلى رئيس البعثة تفيد بأن إدوعيش اجتمعوا من جديد بأعداد كثيرة في كيفة شرقي تكانت، وفي "أفلة" إلى الشمال من "انيورو"، ولذلك فإن بإمكانهم عرقلة

المسير إلى تجكجة، فأمر كوبولاني فريرجان بأن يحمل على هذا التجمع المعادي ويبدد جمعهم.

فانطلق هذا الأخير يوم ٢٦ مارس على رأس فرقة مدعومة، تتشكل من ١٢٠ عونا من السود و٥٦ من البيضان ولم يكن من بينهم من الأوروبيين إلا ضابط صف واحد هو الرقيب مارين *Marin* وكان معه مرشدان(دليلان) ولم يصطحب معه من الزاد إلا ما يكفى لخمسة أيام على نية التزود من البلاد.

وبعد أن عبر الرتل المنطقة الجبلية لتكانت توغل في الرقيبة ووصل إلى كيفه حيث لم يجد إلا آثارا متجهة نحو أفله، وسار في نفس الاتجاه عابرا منطقة متصحرة عاني فيها الأعوان المشاة على الأقدام من الحر الشديد ونقص الماء. ولكنه فقط بفضل إخلاص البيضان المتحالفين أصحاب الخبرة في اكتشاف نقاط الماء، استطاع الرتل أن يتابع سيره بدون مشكلة، وبدأت الأزواد تنقص فتم نحر بعض جمال الحمل للتزود بلحومها.

وفي يوم ١ ابريل عند الساعة الخامسة صباحا، فوجئ معسكر إدوعيش النازل قريبا من بو قدوم. إذ استطاعت مفرزة فريرجان التي كانت تتحرك على الأرض خفية، أن تقترب إلى نحو ١٠٠ خطوة من المعسكر، وفتحت النار على المخيم، فلم يفكر إدوعيش المشوشون بفعل هذا الهجوم المفاجئ إلا في الهرب، وامتطوا صهوات الجياد وتفرقوا في كل شعب تلاحقهم نيراننا، تاركين وراءهم المواشي والمعدات والمؤن. وكانت خسارتهم فادحة

وكان من بين القتلى الأمير المسن بكار ذو السبع والتسعين عاما، عدونا اللدود، الحاذق، المحارب، الذي تعاطى مع كافة الحكومات الفرنسية من عهد الويس فيليب، والذي كان يفتخر بغلته لكل قبائل البيضان حتى تومبكتو وحتى إنه غلب فيدرب.

وفي اليوم الموالي أخذ الرتل طريق العودة وصدَّ في طريق العودة هجومين مضادين من إدوعيش، وفي يوم ١٠ ابريل وبعد أن قطع مسافة ٦٨٠ كلم خلال ١٦ يوما عاد الرتل إلى "تجكجة" فوجد البعثة وصلت إليها قبل ذلك بقليل. هذه الغزوة التي تمت بقوة وتصميم طمأنت رئيس البعثة حول أمانة خطوط الاتصال لديه، وجاءت بضربة قاسية لمعنويات إدوعيش الذين ظلوا على أثرها مدة سنة لا يستطيعون القيام بأي شيء ضدنا، بل يمكن أن ينتهي بهم الأمر إلى أن يعلنوا خضوعهم لو كان كوبولاني ظل حيا. هذه النتائج التي تم الحصول عليها بوسائل محدودة تعود إلى حماس وحركية المفرزة التي يقودها فريرجان، والسطوة التي يمارسها هذا الأخير على هؤلاء الأعوان السود وعلى البيضان. وفي "تجكجة" استقرت البعثة في النخيل على كثيب في مشارف القصر وبدأت فورا في بناء الموقع. وتابع كوبولاني نشاطه الدبلوماسي في المفاوضات والنقاشات المملة، فاستدعى إليه كنته الحوض وشيخهم محمد المختار الذي وعده بأن يمنحه الهيمنة على تكانت في محل إدوعيش.

وفي تلك الأثناء دخلت فصائل من إدوعيش والعديد من أبناء بكار في مفاوضات لإعلان خضوعهم، حيث حضر أحدهم وهو الحسين ولد بكار إلى تجكجة مبعوثا حسب دعواه من قبل الفصيلتين اشراتيت وابكاك الذين كلفوه بطلب الأمان. وبعد كثير من المواربات قبِل الحسين شروط كوبولاني، ولكن رئيس البعثة ظل يخامره الشك في صدق نيات الحسين؛ فتصرفات الحسين دون شك تدفعها الحاجة إلى كسب الوقت والحصول على رخص للتموين من النهر.

وفي ذات الوقت يمهد كوبولاني لدخول آدرار حيث يأمل بعد أن يضم هذا الإقليم(آدرار) إلى سلطتنا أن يعبر موريتانيا من الشرق إلى الغرب حتى يصل إلى خليج لفري ومن هنالك يبحر على متن سفينة إلى سان لويس. ولكن الأخبار الواردة من آدرار غير مبشرة، إذ تفيد بأن القبائل المحاربة في تلك الأقطار توحدت مع أولاد بسباع والمتمردين من الترارزة بهدف قطع الطريق أمام البعثة، والأمير الشاب لآدرار ولد عيده الذي تربى في زاوية ماء العينين يكتب إلى كوبولاني يقول له: إن بلده(آدرار) تحت حماية سلطان المغرب وبأنه سيظل في سلم معنا ما دمنا في سلم مع سلطانه. ولكن البعثة لم تستطع التحرك بسبب نقص التموينات، وقد صادرت ٣٠٠ جمل عائدة من سبخة الجل حيث كانت تبحث عن الملح، وتم تنظيم قافلة تموين في اتجاه ابودور وألاك تحت قيادة النقيب سيكولي *Ciccoli* . وفي انتظار عودة القافلة فكر كوبولاني

بالتوجه إلى تشيت وطلب من الحاكم في انيورو أن يرسل إليه قافلة تموينية هنالك.

وفي تلك الأثناء نجح شريف متعصب من آدرار يدعى سيد ولد مولاي الزين في تأليف مجموعة من ٢٠ شابا يرافقونه في مهمة تقوده إلى الحوض حسبما أعلن لهم، وفي أثناء الطريق كشف لهم عن نياته الحقيقية، وقال لهم إنه رأي في المنام أن الله ألهمه بأن كوبولاني سيموت على يده.

فتمكنت المجموعة الصغيرة من أن تصل إلى تجكجة دون عرقلة، وفي يوم ١٢ مايو عند الساعة العاشرة مساء انسابت المجموعة تحت غطاء النخيل في جنح الظلام حتى وصلت إلى مدخل الموقع الذي لا يزال قيْد البناء وقتلت بطلقة نارية واحدة عن كثب كوبولاني الذي كان نائما مستندا إلى الحائط. وخلال المعركة القصيرة التي تلت تلك كانت خسائرنا أربعة قتلى وبعض الجرحى، وطرد البيضان خارج المعسكر من قبل الملازمين شيري *Cheruy* واتيوفه *Etievant* وكان هذا الأخير تلقى ضربة حسام من الشريف في رأسه فأدمته ولكنه أخذ مسدسه وقتل الشريف.

فأصبحت البعثة مقطوعة الرأس، وشيئا فشيئا- ودون زاد- محاصرة في "تجكجة"، وكان عليها أن تبحث عن حيلة لاستمرار القوام حتى تصل قافلة الإمدادات والتموينات المرسلة من سان لويس تحت قيادة العقيد مونتاني *Montané* المعين مفوضا عاما للحكومة في موريتانيا خلفا لكوبولاني.

وفي انتظار هذه الإمدادات أخذ النقيب فريرجان قيادة البعثة ودعم إجراءات الأمن والاحتياط والحذر، ذلك أنه عندما علم الناس بمقتل كوبولاني بدأ أولاد بسباع ورجال آدرار بالهجوم.

وفي يوم ٣ يونيو استولت عصابة من ٨٠ من البيضان إلى الجنوب من "تجكجة" على قرابة الألف من النعاج وهاجمت مفرزة صغيرة يقودها عريف، فطاردهم الملازم *de Lavauguyon* و١٤ جزائريا وعشرون من البيضان فترك الناهبون غنائمهم ولكن للأسف ضل أربعة جزائريين لدى العودة وماتوا عطشا. وبعد ذلك بقليل عُلم أن أمير آدرار شخصيا يتجه إلى "تجكجة" على رأس جيش من المحاربين. وفي يوم ١٨ عند الساعة الخامسة صباحا أعطيت الإشارة بالإنذار فانتدب المحاربون البيضان لملاقاة العدو الذي كان يتألف من ٣٠٠ رجل ولكنهم دحروا فقام الملازم *de Lavauguyon* بنجدتهم ولم يندحر المهاجمون إلا بعد قتال بالحراب تاركين وراءهم ٩ قتلى و١٠ جرحى وجرح منا نحن اثنان من الرماة وقتل أحد القوم.

وفي يوم ٢٤ يونيو وصلت قافلة الإمداد إلى "تجكجة" وفكت الحصار عن الحامية المحاصرة من قبل الألف من البيضان القادمين من آدرار وخاصة أولاد بسباع الشمال وأولاد غيلان. وباختفاء كوبولاني تم وضع حد لسياسة التوغل السلمي التي كانت سياسة شخصية له هو.

لقد عرف كيف يستخدم ـ وبصورة لم يستطع أي شخص آخر أن يفعل مثله ـ التنافس واختلاف المصالح للأفراد والجماعات ونجح بهذا الأسلوب في أن يبسط نفوذنا على جزء كبير من موريتانيا في أقصر مدة وبأقل تكلفة وبالحد الأدنى من إراقة الدم. ولم يبق له لإكمال مهمته إلا إتمام دخول آدرار، المرحلة الأخيرة من هذا البرنامج الكبير الذي حدده لنفسه والذي تم تنفيذه نقطة نقطة حسب التوقعات. وكان سيتمه لولا أنه سقط تحت ضربات متعصب من أولاد النور[1].

وبهذه السياسة الذكية خدم كوبولاني القضية الفرنسية في موريتانيا حتى بعد موته، ذلك أنه عرف كيف يعقد مع بعض كبار الشيوخ وخاصة كبار شيوخ الزوايا صداقات حصدنا نحن ثمارها فيما بعد، وظلت ذكراه ردحا طويلا من الزمن مهيبة عند قبائل الزوايا الذين كانوا يرون فيه ممثل فرنسا المتسامحة والحضارية. وأحد معاونيه واسمه ربير أرنو *Robert Arnaud* كتب عن هذا الرجل الذي كان مخلصا بشكل عجيب للمهمة التي كلف بالقيام بها، والذي ظل اسمه بين أولئك الفرنسيين الذين حفظتهم الذاكرة الموريتانية، والذي ظل إلى أيامنا هذه تلهج به شفاه السكان المحليين. فترك لنا عنه الصورة المثيرة التالية:

(١) الأطفال الذين خلقوا للأمور الجسام وخاصة للمصالح الدينية وهم الذين ولدوا خلال الحفلات الليلية من الاحتضان الشعائري في طريقة الغظف (طريقة في جنوب آدرار).

" بقامة فارعة ومنكب عريض ووجه نشط مع عضلات مشدودة بكامل إرادتها حتى تصبح هادئة. كان كوبولاني أكثر من زعيم السياسة الفرنسية المسالمة، بل كان رسولها وداعيها الأول: فتعوُدُه غشيان عقول الرجال الأشد مكرا ودهاء ودبلوماسية في العالم المعاصر جعله دون ريب فوق الرجال أمام أمر خيانة أو سماجة أو سوء ائتمان إذ يبقي صامتا مبتسما متغاضيا. والعديد من أولئك الذين وصفوا أعماله أو ووصفوه هو نفسه كانوا يعتقدون أن رحابة صدره وأناته تنم عن ضعف، ولكنهم كانوا يجهلونه لأنهم كانوا قبل كل شيء عديمي الجدوى. " فالإنسان الذي ليس صاحب حركية ونشاط يمكن أن يكون موظفا مثاليا يملك الطموحات التي يخولها له إدراكه البسيط، ولكن لن يكون إلا قليل الذكاء زهيدا.

وقد كان كوبولاني قبل كل شيء رجل حركة ونشاط، يبتكر القيّم الجديدة، وكان هذا الخادم الجيد للفكر عليه أن يسقط في وسط الطريق بقدر شؤم لا مرد له يوم ١٢ مايو ١٩٠٥ بتجكجة في تكانت حيث قتل على يد متعصبين، تاركا لآخرين مهمة الاستمرار في المسير إلى الأمام. ولكن أيا منهم لم يعرف كيف يحل محله بصورة مكتملة.

"وعندما نسمع أحد هؤلاء الحمقى يصرخ: لا يوجد رجال لاغناء عنهم، فإن ذلك صحيح لأن أمرا يبعث على الاشمئزاز والتضيق يَهيج في حلقه. فالشخص ينسج ويحلم على منواله، لكننا كلنا نعلم أن الرجل العبقري لا غَناء عنه للنوع لأنه ينشئ إيديولوجية

جديدة ولأن الوسط البشري الذي ينمو فيه يشكل كتلة تدور حوله. فالشعب عبارة عن دورة للطبيعة للوصول إلى خمسة أو ستة رجال عظماء كما يقول *Nietzsche* . وكان كوبولاني يملك رؤية واضحة مبسطة جدا لمعرفة أولئك الذين هم مهيئون بالفطرة لقيادة الجمهور، ومواهبه التحليلية الخارجة عن الطاقة تمكنه من التحرك دون كلل في وسط المشكلات المستعصية للسياسة المسالمة. وكان ينجز في هذه الرؤية النمط الدبلوماسي المتكامل الذي لا يراقب ويكتم الغيظ فقط ولكن يتصرف مع ذلك. ويصف العقيد مونتني في تقريره عن ظروف ونتائج مهمته في "تكانت" سنة ١٩٠٥ طريقة عمل المفوض الأول للحكومة العامة في موريتانيا فيما يلي:

في كل مرة يكون هنالك زعيم حربي على رأس مجموعة مهمة يواجهنا بالمقاومة يخترق كوبولاني هذه المجموعة، باحثا عن الشقوق التي تمكنه معرفته العميقة بشؤون المسلمين من كشفها بسرعة، ويشرع فورا بأسلوبه الخاص في العمل على تفكيك المجموعة، منطلقا من مبدأ أن كل تجمع بشري مؤسس على العنف والقوة يوجد من بينه متذمرون.

بدلا من العديد من الأمراء الوارثين الذين كانوا يقودون القبائل بصورة بعيدة عن الانسجام، لم تزل في خلافات ونزاعات باستمرار، تنظم سلسلة من الجمعيات العامة المختارة على درجات متفاوتة يتم فيها بالأغلبية انتخاب سلطة موالية له بدلا من سلطة متمردة عليه. وبدلا من المنافسات الصغيرة بين الأشخاص

والعائلات يتم إحلال الاهتمام بالمصالح العامة محل حالة الحرب الدائمة وإنهاء الفتن الداخلية وإقرار السلم الضروري للقيام بأي عمل حضاري حقيقي، كان ذلك هو التصور العظيم المرسوم بوضوح في ذهن كوبولاني والذي كرس له نفسه بالكامل، ومن السهل عليك أن تجد قواعده الأساسية في كل ما فعل أو قال أو كتب.

وانتشر مقتل كوبولاني بسرعة في موريتانيا كاملة، حيث ترتبت النتائج الخطيرة من وجهة النظر المتعلق بالنشاط السياسي للبلاد، فكل القبائل التي كانت قد وصلت في محادثات من أجل إعلان الخضوع بفضل مهاراته في المفاوضات استعادت فورا حريتها في التصرف. وهناك قبائل أو فصائل سبق أن أعلنت خضوعها، ذهبت متمردة وأمير آدرار وكذلك ماء العينين كما سنعلم لاحقا والذي حرض على قتل كوبولاني يعتبر هذا الحدث نجاحا مهما فأصبحت ثقتهم وتصميمهم على مواجهتها بالمقاومة أكثر حيوية وأشد دعما.

فلم يكن من الممكن وقتئذ مباشرة المسير المزمع الذي كان مقررا نحو آدرار. فاتخذ العقيد كابد بوسك *Montané Capdebosc* في الحال جملة من الإجراءات من أجل ضبط الأمور، بل ومن أجل التطوير الداخلي لنفوذنا في "تكانت" ومركزنا في "تجكجة" وترك حامية كافية وغادر نحو سان لويس.

وفور وصوله إلى عاصمة الإقليم قام المفوض الجديد للحكومة العامة بتحديد أسس التنظيم الإداري الجديد لكافة أقاليم البيضان

التي أصبحت خاضعة لسلطاتنا، فتم تقسيم الإقليم المدني لموريتانيا إلى ٥ دوائر.

- ❖ **دائرة اترارزة الغربية عاصمتها "أخروفة"**
- ❖ **دائرة اترازة الشرقية عاصمتها "بوتلميت"**
- ❖ **دائرة البراكنة عاصمتها "مالْ"**
- ❖ **دائرة كوركول عاصمتها "كيهيدي"**
- ❖ **دائرة"تكانت" عاصمتها "تجكجة"**

ولضمان أمن هذه الأقاليم الشاسعة يتوفر المفوض على ما يلي :

- **ثلاث فرق من الرماة السنغاليين، في "بوتلميت" و"تجكجة" و"كيهيدي" مع مفرزة في "أمْبُود"**
- **كتيبة من الفرسان في "الرقبة"**
- **مئات من القوم السود على حساب ميزانية موريتانيا**
- **فريق من القوم البيضان مؤلفون في مجملهم من الحراطين تحت قيادة حاكم الترارزة الشرقية** *M.Theveniaut*

٢- الاستقرار وهجوم البيضان ١٩٠٦ ــ ١٩٠٨
ماء العينين والتدخل المغربي، الشريف مولاي إدريس- انيملان ومركز تجكجة

الهدوء سنة ١٩٠٧ ـــ هجوم البيضان سنة ١٩٠٨

خلال سنة ١٩٠٥ وبداية ١٩٠٦ ساد جو من الهدوء موريتانيا. ففي الجنوب استأنف السكان المزارعون في شمامه نشاطهم ودفع الضرائب بانتظام بعد أن اطمأنوا. وفي شمال تكانت تقدمت بعض فصائل إدوعيش لإعلان خضوعهم للنقيب بايْن *Payn* المقيم في الدائرة. ومع ذلك نلاحظ هيجانا في آدرار، حيث الأمير الذي ظل معارضا لنا بشدة يجد نفسه أمام دفع وتحريض من إدوعيش الجنوب الذين يدفعونه للهجوم علينا وإخراجنا من تكانت قبل أن نتمكن من القيام بعملية داخل أرضه هو (آدرار)، ومن الشيخ ماء العينين في الشمال والذي يزوده بالسلاح السريع الطلق والذخيرة. وهذا الذي سيصبح فيما بعد أخطر وألد أعدائنا في موريتانيا مرابط السمارة بدأ ينكشف بمناسبة مقتل كوبولاني. فهو الذي لدى زاويته بالساقية الحمراء تنتظم المقاومة ضدنا، ويكتب إلى كافة زوايا موريتانيا يناشدهم الله بأن يحملوا السلاح ليوقفوا تقدمنا، ويردونا إلى الجنوب. وتجوب رسله مخيمات "تكانت" الرقيبة والحوض وحتى المناطق الخاضعة من موريتانيا الواطئة، داعين للحرب المقدسة(الجهاد) وواعدين بالمساعدة بالسلاح والذخيرة ودعم سلطان المغرب.

ووجدت دعوته صدى وخاصة في آدرار قريبا منه حيث أرسل العديد من أولاده لإنعاش حماس المترددين. والأمير الشاب الذي تربى في أحضان زاويته طبعا يعتبر مكسبا (دون شك). ومن جهة أخرى يثير اهتمام سلطان المغرب الذي ـ لكي يحثه على الاهتمام بآدرار ـ يصور له البلد بأنه منطقة غنية وبأنه جزء طبيعي من إمبراطوريته.

ولم يقتصر نشاطه على الناحية المعنوية فقط، وإنما كان يزود أعداءنا بالسلاح السريع الطلق والذخيرة التي كانت بعض السفن المهربة للسلاح تأتي لتحط وتفرغ قريبا من إقليمه في رأس الطرفاية.

فاستفادت قبائل عديدة من تكانت كانت سبق أن أعلنت خضوعها لكوبولاني من هذه الظروف للرجوع في تعهداتها، وذهبت منشقة إلى آدرار حيث سيزداد بهم عدد الأعداء وتتشكل في هذا البلد نواة معارضة أصبحت مصدر قلق وإزعاج.

ولحسن الحظ لنا، فإن العيب الرئيسي لمجتمع البيضان الذي هو الفوضى التي مكنت كوبولاني من النجاح السريع لا تزال تهيمن في آدرار على معارضينا، بالرغم من الحضور من قرب للعدو المشترك. "فالضيافة التي يقدمها آدرار للقبائل المنشقة هي تلك التي يوفـــرها اللص للمسافر[1]".

---

(١) النقيب دلبي: مذكرة حول إقليم موريتانيا.

فبعض القبائل تنتهز فرصة تجمع المخيمات لتسوية شحناء قديمة باستخدام السلاح وسرقة بعضهم البعض.

ولما لم يتمكن ماء العينين من جمع هؤلاء وضبطهم وتوجيههم ضدنا استقدم إليه في السمارة الشيوخ الأساسيين وربطهم بممثل سلطان المغرب.

فرجعوا إلى آدرار مرتفعي المعنويات، متوفرين على أسلحة سريعة الطلق وذخائر كثيرة وتبعهم شريف مغربي هو مولاي إدريس الذي يزعم أنه عم السلطان مولاي حفيظ، أرسل من قبل هذا الأخير ليطلب من الفرنسيين مغادرة موريتانيا، وإذا اقتضى الأمر إعلان الجهاد ضدهم من أجل طردهم من البلاد التي يجب أن تعود تحت إدارة السلطان الشرعي. يدعى الشريف لنفسه مهارات عسكرية كبيرة ويهتم فور وصوله آدرار بتنظيم المحاربين، وباءت جهوده في البداية بالإخفاق تماما، والبيضان ظلوا أكثر اهتماما بنزاعاتهم فيما بينهم من اهتمامهم بالعدو المشترك، فهددهم مولاي إدريس بالعودة إلى الشمال، وأخيرا استجاب المحاربون للعقل، فغادر الشريف آدرار على رأس حركة لديهم ٥٠٠ مدفع مؤلفة في مجملها من أولاد بالسباع وإدوعيش ومشظوف واتجه نحو تكانت حيث استقرت العصابة حوالي تجكجة قاطعة طرق الاتصال بين الموقع والجنوب. وفي الأيام الأولى من أكتوبر بعث مولاي إدريس إلى النقيب تيسو *Tissot* قائد المركز إنذارا بإخلاء تكانت.

فقام النقيب تيسو الذي علم بأن هناك قبائل أخرى ستلتحق بتلك التي اجتمعت مع الشريف بابتعاث الملازمين أندريو *Andrieu* وديفرس *de Franssu* على رأس ٦٠ من الرماة و٨ من القوم البيضان وفريق من المناصرين من كنته ضد العصابات المتجمعة. فأراد الملازم أندري الهجوم بغتة في الصباح الباكر ولم يتمكن من الوصول إلى "النيملان" حيث توجد حركة الشريف إلا بعد السابعة صباحا، إذ كان قد ضل الطريق بسبب مرشده ولكنه مع ذلك قرر الهجوم.

فنصب له مولاي إدريس ـ الذي أشعره إدوعل تجكجة ـ كمينا ووجد نفسه منذ البداية محاطا بقوى أكثر منه بكثير وبالرغم من حصول معارك عديدة بالحراب لم ينثن وسقط فورا تحت ضربات التلاميذ هو والرقيبان فيلب *Philippe* وفلوريت *Fleurette* وما يناهز العشرين من الرماة.

واستفاد الملازم *Franssu* المجروح من فترة توقف منحها إياه العدو الذي مُني هو نفسه بخسائر جسيمة جدا، فجمع فلول المفرزة وأعاد إليها النظام في اتجاه الموقع العسكري حيث اكتملت الهزيمة بفعل خيانة المناصرين.

وخلال مرورهم بالعدو هاجم هؤلاء الملازم *Fanssu* فقتلوه وتمكن الرماة الباقون على قيد الحياة من الوصول إلى الموقع زرافات صغيرة. هذه العملية الكبيرة كلفتنا أرواح ضابطين وضابطي

صف و١٥ من الرماة بالإضافة إلى ٢٦ جريحا. ومني العدو بدوره بخسارة زهاء المائة من الرجال.

وفي ٦ نوفمبر ضرب مولاي إدريس الحصار على تجكجة التي لم تعد حاميتها تتالف إلا من ٨٠ من الرماة الأصحاء، ولم يعد النقيب تسو يتوفر إلا على ضابطي صف من الأوروبيين والدكتور *Commeleran* ومسئول شؤون السكان المحليين *Daireaux*، فأخذ هذان الأخيران قسطا مهما من عملية الدفاع وكلفا بالمدافع الرشاشة التي تقذف شمال وجنوب الموقع.

وأما مولاي إدريس فقد كان نجاحه في "النيملان" مكنه من الحصول على تعزيزات كبيرة، حيث يمكن أن نقدر عدد المحاربين معه من البيضان في حصار "تكجكة" ب ٣٠٠٠ رجل.

وفي يوم ١٤ بعد ما وزع فرقه إلى ثلاثة أرتال وأمر بالانقضاض على الموقع، كان أحد الأرتال في مرمى المدافع الرشاشة فأطلق عليها النار فخسرت ٦٠ من أفرادها فتشتت، وتراجع الثاني بعد ما مني بخسائر، ورفض الثالث المسير.

وبالرغم من هذا الإخفاق لم تفتر همة الشريف، وتهيأ بعد ذلك بقليل للانقضاض، ولما علم بوصول قافلة الإمدادات القادمة من أجل فك الحصار عن حامية "تكجكة"، قرر رفع الحصار والانسحاب إلى بُعْد ٤٠ كلم شمال "تجكجة" وقد كانت مدة هذا الحصار ٢٤ يوما وكلف العدو ٧٠ قتيلا ومثل ذلك من الجرحى.

ومختلف معارك أكتوبر ونوفمبر كانت خسائرها باهظة للعدو وخمد كثيرا حماسه، والزهو الحربي الذي كان الشريف يدعيه نقص بمثل ذلك. وعند وصول قافلة ميشارد *Michard* التي غادرت سان لويس يوم ٤ نوفمبر لتصل إلى "تجكجة" يوم ٢ دجمبر بعد سلسلة من الرحلات المملة انسحب مولاي إدريس انسحابا بائسا نحو آدرار لعلمه أنه لم يعد يستطيع مقابلة فرقنا، واستقر في وادان بحجة انتظار تعزيزات ستصله من المغرب.

وهذا الموقف بعيد من أن يناسب ثقه الشريف بمواهبه الحربية، وانتهى به الأمر إلى أن تلاشي في عقول البيضان، الذين لم يعودوا يمنحونه سوى الازدراء. وغادر "عم السلطان" الخجل في هذه المغامرة آدرار خفية في بداية سنة ١٩٠٧ بعد ما حصل بمشقة على بعض الجمال الضرورية لرحلته.

ويعتبر هذا الإخفاق، إخفاقا لماء العينين الذي كان قد حاول إخراجنا من تكانت، وكان هو المحرض على قتل كوبولاني في رسالة بعث بها مع أحد أبنائه، حصل عليها العقيد مونتاني كبديبسك، تعطي تفاصيل توحي كثيرا بتصرفات مرابط السمارة.

وحوَّل العقيد مونتانيه هذه الوثيقة إلى الحاكم العام في الصيغة التالية: " في هذه الرسالة المكتوبة بأمر وباسم هذا المرابط القوي، يذكر فيها أن المسلمين من أمثال ولد عيده سلطان آدرار وأهل سيد محمود وأهل اسويد احمد ومشظوف بعثوا إليه رسلا لمناشدة

سلطان المغرب، التدخل لصالحهم ضد النصارى الذين يريدون الاستيلاء على البلاد.

وقد تم تحويل هذا التحقيق إلى المخزن في فاس ليتصل بالنصارى (مفوضينا دون شك) الذين قدموا حجتهم بأن البلاد محل النزاع يجب أن تتبع لأول محتل، فطالب المخزن بحقه في هذه الأقاليم التي كانت ذات مرة تابعة له، ووعد مراسليه بأنه سيقدم لهم الدليل خلال سنة، وبأنه إذا استمر النصارى في احتلال البلاد فإن الجهاد سيعلن وسيعتبر عدوا كلُ من لم يقطع علاقاته مع الكافرين".

وعلينا أن نعجب من الادعاءات الصادرة من محكمة فاس التي إلى حد الساعة تركت هذه الأقاليم التي تشكل موريتانيا في أشد النسيان التام والحرمان من أي اتصال أو مساعدة، غير مبالية بعمليات النهب المستمر التي عانت منها منذ آماد بعيدة".

ومع أننا لا نعطي أهمية كبيرة لتصريحات ماء العينين التي يبدو أنها تشكل محاولة للتخويف، ترمى خاصة إلى تخلي بعض مناصرينا عن قضيتنا دون أن تضيف أو تؤكد عزما في نيات المخزن في المطالبة بحقوق افتراضية على موريتانيا. لكننا لا يمكن إلا أن نلاحظ أن هنالك دسائس تزداد شيئا فشيئا تحاك ضدنا في هدف محدد، هو معارضة نشاطنا وتوغلنا. وأن هذه الدسائس نابعة من الساقية الحمراء، وربما فوق ذلك من الأقاليم الخاضعة للنفوذ

المغربي. وأنها على كل حال تبدو حسب مجموعة من الوقائع التي توحي بها بعض المعطيات المختلفة تشكل بين هؤلاء رابطة مثيرة.

"لذلك فإن الظروف التي اكتنفت تنفيذ مقتل كوبولاني في تجكجة أخذت طابعا لا يمكن معه اعتبارها إلا عملا تعصبيا خالصا، ولكن إذا كنا ظنناه في البداية حدثا معزولا بفعل الحماس الديني لفرد من الأفراد، فإنه يجب علينا اليوم أن نعطيه طابعا أكثر شمولية، ذلك أن التحقيقات التي أجريت حول هذا الموضوع أوحت إلينا فعلا دون شك أن قاتل رئيس بعثة تكانت الشريف سيد مولاي الزين كان أشد الناس حماسا بين أتباع طقوس الغظفية، هذه الطريقة التي تتفرع عن طريقة القادرية كان قد تم تأسيسها منذ فترة قليلة، أسسها أحد أتباع محمد فاضل الكبير والد الشيخ ماء العينين والشيخ سعد بوه، واسم هذا المؤسس الشيخ سيدي محمد بن الغظفي الذي يقطن "أوجفت" ويتصف أتباعه بمبادئ وأعمال لا نظير لها في الإخلاص." بيد أنه في أعين الشعوب البيضانية المنشقة كان كوبولاني يهدف إلى غرس انتشار العنصر المسيحي في بلاد الإسلام، فهو إذن الذي يجب أن يستأصل لإيقاف هذه السياسة التي جعل من نفسه ممهدا شجاعا لها.

" الشيخ ماء العينين المعارض المصمم لتوغلنا في آدرار، والمستفيد من نفوذه العميق لدى الطريقة الغظفية، باشر ـ بمساعدة من هذه الطريقة ـ حملة عنيفة ضد سلفنا المأسوف عليه، انتهت بمقتل ممثل فرسنا في تجكجة.

" وحينها كان شيخ الساقية الحمراء الكبير يتابع إنجاز خطته، فقد وجّه منذ قليل كما أوردنا في بداية رسالتنا، نداء جماعياً إلى بعض القبائل التي قبلت طواعية نفوذنا وخضعت لإدارتنا، من أجل التمرد. وأكثر من ذلك وبفضل دعم الحكومة المغربية أعطى أسلحة سريعة الطلق وذخيرة إلى رجال آدرار، وأعطاها حتى لأولئك الخاضعين لنا، والذين هم مستعدون للتخلي عن قضيتنا."

ومن أجل إرساء النظام في أقاليمنا التي حاول عملاء المغرب نشر الاضطرابات فيها طلبت الحكومة العامة القيام بتدخل دبلوماسي لدى الحكومة الشريفة، واحتجت مفوضيتنا بفاس على تهريب السلاح وتصرفات مولاي إدريس.

وفيما يتعلق خاصة بتجارة السلاح السريع الطلق الذي يأتي من "الصويرة" و"الطرفاية" ومن واد نون، هذه التجارة التي تشكل تهديدا لأمن مواطنينا والتي تحرِّمها معاهدة "ابروكسل" تحريما باتا، اقترح الحاكم العام بأن نائب قنصلنا في "الصويرة" يمكن أن يُستدعى ليراقب عن كثب كل الواردات التي يُمكن أن تحدث في هذه البقعة ويراقب كذلك إعادة تصدير الأسلحة المتطورة إلى الساقية الحمراء، حيث يقوم الأعوان السابقون بإدخالها إلى آدرار وحتى إلى تكانت. واكتفى المخزن في ردوده التملصية فيما يتعلق بمولاي إدريس بالتصريح بأن مهمة هذا الأخير لم تكن شيئا آخر سوى الذهاب للتحقيق الميداني حول ما إذا كانت هذه المناطق محل النزاع تابعة للسنغال أو للمناطق التي تعترف بالسلطة الشريفة. "وفي

حالة ما إذا كانت تلك هي نتيجة التحقيق؛ يقول فيزير بن سليمان لقنصلنا *M.Gaillard* في يناير ١٩٠٧ فلم يكن عليه طبعا أن يعلن الحرب المقدسة (الجهاد) فهذه الحماقة لم تخطر أبدا ببال أحد من أعضاء المخزن، ولكن فقط لإعطاء محكمة فاس المعطيات الضرورية.

وشرع السلطان حينئذ في محاولة التفاوض مع الحكومة الفرنسية بالطرق الودية بهدف وضع حدود لمناطق النفوذ.

ولكن سوء نية السلطان انكشفت لنا من خلال الكتاب الأصفر لشؤون المغرب ١٩٠٧، حيث ورد فيه التعميم الموجه إلى الزوايا والذي تتضمن فقراته الرئيسية ما يلي:

"... هذه الرسالة تهدف إلى إعلامكم بما قرر المسلمون إزاء النصارى بمعني أن كل المرابطين والمحاربين بعثوا ممثلين لدى الشيخ ماء العينين.

" كل القبائل اتفقوا على إعلان الحرب المقدسة (الجهاد) ضد النصارى. والممثلون الذين جاؤوا إلى الشيخ ماء العينين ذهبوا ومعهم ابن السلطان المسمى مولاي إدريس وأخذوا معهم مدافع جيدة.

"وبعد مدة من الزمن سيقوم الشيخ ماء العينين أو أحد أبنائه بزيارة للسلطان للحصول منه على الأسلحة والمؤن الضرورية للفرق، وليجدد له ما قاله له في السنة الماضية من أن المسلمين

يشتكون من النصارى (الفرنسيين) الذين كان ردهم: أن البلاد التي قمنا باحتلالها كانت مهجورة وليست تابعة لأحد.

"إن أصدقاء السلطان هم الألمان الذين هم أقوياء... فالألمان قدموا خدمات جلى وزادوا دخل البلاد من خلال إحداث رسوم تُقتضي من البضائع في المرافئ... وقالوا له كذلك بأنه إذا اثبت أن البلاد المتنازع عليها تخضع لسيادته سيتولون هم أنفسهم أمرها إذا لم يكن الفرنسيون يريدون إخلاءها.

وشهدت سنة ١٩٠٧ بعض الهدوء فيما يخص هجومات المتمردين، ذلك أن هؤلاء المنشقين الذين فقدوا رؤوسهم في ذهاب الشريف مولاي إدريس، تفرقوا مؤقتا بلا قصد في انتجاع الكلأ، ويحثهم الجوع على العودة إلى أوكار مرورهم المعهودة، وبالتالي إما أن يعلنوا خضوعهم جماعات أو يلجأوا داخل بعض المجتمعات الخاضعة حسب كل حالة. ولذلك طلبت غالبية كنته وإدوعيش الأمان في نهاية هذه السنة.

وأما المتصلبون فقد لجأوا إلى آدرار حيث الشعوب الحائرة بدون قيادة بعد ذهاب الشريف، انتهى بهم الأمر إلى أن بعثوا إلى الشيخ ماء العينين وفدا مهما يطلبون منه العون والإشارة. ولكن مرابط السمارة هو نفسه كان في ضيق من العيش، قد صادرت له الجمارك المغربية بتدخل منا شحنة من السلاح كانت موجهة إليه.

وقرر هو نفسه أن يقود هذه الوفود (الصربة) من المحاربين البيضان إلى مراكش للحصول على تدخل السلطان ضدنا، وربما كان أيضا يأمل أنه بظهوره على رأس جمع كبير من المحاربين الذين يأتمرون بأوامره، أن يعيد إظهار قدره الشخصي أمام سكان جنوب المغرب، الذين يُعوِل على إمكانية الاستفادة منهم. ولكن السلطان للأسف كان مشغولاً جدا بالمغرب بحيث لا يمكن أن يهتم جديا بآدرار الذي لم يبد له أبدا أنه بلد غني، وأن إلحاقه بالامراطورية سيكون عملية مربحة، على الرغم من اختلاقات ماء العينين. وإخفاقُ بعثة مولاي إدريس فوق ذلك يجعله يُفكر مليا.

ويفيض من دعواته كأمير للمؤمنين على المحاربين ويعدهم بالعون في المستقبل.

وأما السكان المغاربة فهم مستاؤون من سوء أدب وعدم لباقة هؤلاء "الرجال الزرق" القادمين من الجنوب نحوهم كما لو كانوا في بلاد مفتوحة، فهم مستعجلون على أن يروهم وهم يغادرون.

وأخذت "الصربة" طريقها إلى الجنوب في نهاية ١٩٠٧، بعد أن حصلت فقط على بعض قطع السلاح السريع الطلق التي انفلتت من رقابة السلطات الفرنسية، فانتهز العقيد مونتاني كابدبوسك فرصة هذا الهدوء للاستمرار في تزويد القبائل بالمؤن، وشرع في إنشاء فرق الجمالة التي تبين لنا أنها وحدها تمكننا من التصرف بفعالية ضد عدونا.

والعصابات المنشقة المتبدية بطبيعتها الاجتماعية وهِوايتها، بما أنها ليست لديها علاقة دائمة بنقطة معينة من الإقليم الذي يمكننا احتلاله بصورة دائمة، فقد استفادت إلى اليوم من تفوق غير منازع فيه على فرقنا المحتلة، وخاصة مفارز القناصة. ولكنهم بدون شك لا يثبتون أمام أعواننا من السنغاليين الشجعان. لكن حركيتهم تمكنهم من التسرب من خلال الفتحات الواسعة في شبكتنا الرقابية، وحتى من الانتصار على مفارزنا أو على الأقل على حساب محْمِيينا من خلال عمليات سريعة غالبًا ما تكون مكللة بالنجاح، حيث يتحتم علينا أن نلاحظ عجزنا عن القيام بالثأر.

ومضاعفةُ المواقع لا يمكن أن تعطي نتيجة عملية، وستقود إلى زيادة أعداد فرق احتلال غير مرغوب فيها ولا يتناسب مع فقر البلاد وستفرض علاوة على ذلك تكاليف باهظة من التموينات والتنقلات وتأمين وسائل الاتصال..الخ.

وعليه فإن استخدام الفرق الجمالة المتحركة أساسا في نشاط ذي شعاع غير محدد، والقادرة على مطاردة هؤلاء الناهبين بدون ملل على امتداد كافة تراب الأقاليم، يُمَكِن وحده من الحصول على نتائج حاسمة، والخروج من حالة شبه السلبية التي تكون فيها لا محالة الحاميات الثابتة، ولو كانت معززة بالخيالة إذا تعرضت لعمليات سلب من هؤلاء البدو الممتطين للجمال.

ونموذج الوسائل التي حصل عليها في تخوم صحراء الجنوب الجزائري ايجابية بهذا الصدد، بيد أن موريتانيا هي الأخرى بلد

البدو الرحل والجمال والحالة متشابهة فيجب استخدام وسائل مماثلة.

وليست فكرة ضرورة استخدام الفرق المتحركة ركوبا على الجمال لتأمين الصحراء جديدة فنقيب الفرطاقة *Montegery* الذي رسا في ميناء سان لويس في طريقه إلى كاين كتب في هذا المضمار.

"يجب أيضا تكْوين فيلق من الجنود يركبون الجمال مثل فيلق النوتيين(الملاحين) في مصر، وستخصص هذه الفرق أساسا للحراسة والخفر فهذا الإمداد على الأرض ومثله من البواخر البخارية على الماء سيفرض على السكان المحليين احترام أبسط الحصون ومبادئ الدفاع[1].

وفي نوفمبر ١٩٠٦ تم إقرار إنشاء ثلاثة أقسام من الجمالة وكان يجب أن تلتحق هذه الأقسام بالسرايا الثلاث الموجودة في الترارزة "بوتلميت" و"تكانت"(تجكجة) و"المجرية".

---

(١) مونتا كري الذي كانت رؤاه مستقبلية مهمة جدا لم يكتف بفتح النقاش حول وحدات الجمالة بل طرح أيضا قضية الفرق السود.

" إنه لا توجد ـ حسب تصريحه هو ـ أي مستعمرة أسهل من مستعمرة السنغال حماية ضد الانكليز هذا المزية تجعلها عزيزة بحيث يجب أن تضاف إليها مزايا التجارة التي ذكرنا، وإمكانية اكتتاب فيالق من السود، نشتري العبيد فندفع مقابل كل واحد = = ٢٠٠ أو ٣٠٠ فرنك بضاعة ، ونجعلهم جنودا لمدة محددة بدل أن نجعل منهم عبيدا دائمين. هؤلاء الجنود بدل أن يزرعوا الأرض لأحد السادة يزرعونها لأنفسهم، وبدل أن يتبعوا لأشخاص غير مهيئين للسيطرة من أمثال المرأة والطفل وبعض الرجال من ذوي الفخر والبخل لن يتبعوا إلا لقوانين سنقوم بمهمة تعريفهم بها قبل أن يخضعوا لها.

وبفضل المهارات التي اكتسبها في هذا الصدد الإداري الحاكم لدائرة الترارزة *M.Théveniaut* الضابط السابق فإن القسم الذي تم إلحاقه بهذه المنطقة حصَّل بسرعة نتائج مهمة. وأما قسم "تكانت" فلم يتم تشكيله إلا في سنة ١٩٠٨ من قبل النقيب مانجان *Mangin* وقيم بمحاولة إنشاء كتيبة من الجمالة في البراكنة في نفس الفترة، ولكن مناخ هذا الإقليم لا يناسب الجمال فلم توجد تلك الكتيبة إلا عرضيًا.

وفي نفس الوقت تم دعم التنظيم العسكري وتحسينه، فقد تم تشكيل الجيش الموريتاني وكان يضم ٥ سرايا من القناصة وقسمين من أصحاب الرشاشات وكتيبة من الفرسان وزمرة من ٨٠ جبليًا وُضِعوا تحت تصرف الحكومة العامة بوصفهم فرقا نظامية. وتتشكل قوى الأمن خارجا عن تشكيلات الجمالة من ألوية من الرماة خارج الإطار وكتيبة من الفرسان خارج الإطار أيضا.

وألغيت مواقع "سهوت الماء" و"اميت" ومنذ سنة ١٩٠٦ وبهدف الإعاقة قدر الإمكان لقبائل "الرقيبة" من الالتحاق بعصابات مولاي إدريس احتل القائد ارنولد "كيفة" قادما من "انيورو" على رأس سرية من الرماة و٦٠ من القوم.

وتم إنشاء موقعين جديدين في الترارزة هما: المذرذرة في الترارررزة الغربية واكجوجت في إينشيري، وتم اختيار هذا الموقع، لأنه يتوفر على ٣ آبار لا تنضب ويُمكِّن من مراقبة الطرق الواصلة بين آدرار والترارزة.

كما أن من شأنه أيضا أن يسهل تطوير نشاطنا السياسي في آدرار، ويكون قاعدة عند الاقتضاء لإعادة القيام بعمليات نحو الشمال. وقد تم إنشاؤه على يد النقيب *Garnier* قادما من بوتلميت يوم ٢٠ دجمبر ١٩٠٧ وكانت حاميته مؤلفة فقط من ٥٠ من الرماة وألحق به جمالة الترارزة.

وهذا الهدوء النسبي الذي حصل في موريتانيا خلال ١٩٠٧ بسبب مغادرة الشيوخ المحاربين الأساسيين إلى الشمال، وبسبب الموقف المتردد للقبائل التي ترتقب وتنتظر نتائج المفاوضات الجارية مع سلطان المغرب، لا يعني مع ذلك عدمَ حصول بعض الاضطرابات التي هي حالةٌ طبيعية مخيمة في بلاد البيضان.

بعض العصابات المسلحة تجوب البلاد، ولكن عملياتها تكتسي طابعا جبائيا أكثر منه غزوا بمعني الكلمة؛ فإنهم لا يستولون على المواشي إلا إذا لم يجدوا قطع القماش النيلة التي يريدونها. وفي أغلب الأحوال لا يشتكي السكان أو يؤخرون شكواهم حتى لا نتمكن نحن من التدخل، إما لخوفهم من العقاب وإما لشبه تواطئ لعدم وضوح المستقبل.

❃ ❃ ❃ ❃

التـــــــرارزة

قبل ذلك في نوفمبر ١٩٠٦ كانت فرقنا الحديثة من الجمالة قد التقت مع العدو، وهذه العملية الأولي لوحداتنا الممتطية ظهور الجمال كانت كليا لصالحها، فقد انطلقت مفرزة مكونة من الجمالة وقوم من البيضان ورماة على الجمال ومناصرين من أولاد ابيير تحت قيادة الملازم *Berger* في البحث عن فريق منشق نازل في منطقة "اعكيلت النعاج" ومنها ينطلق في سلسلة من عمليات النهب في الترارزة.

هذه العصابة التي تتألف من أولاد بالسباع وأولاد الدليم والعلب تم اللحاق بها والهجوم عليها من قبل مفرزة برجي وسقط منها خلال المعركة ١٣ قتيلا و٢٧ جريحا وهربوا تاركين مخيمهم و٨٠ جملا. وكانت خسائرنا قتيلين وأربعة جرحى.

وفي فبراير ١٩٠٧ طارد الملازم *Schmitt* على رأس فريق من الجمالة عصابة كانت قد أحرقت قرية "مكة" ولحق بها وهرب البيضان بعد أن فقدوا سبعة قتلى و٨ مدافع و١٤ جملا.

وفي نفس الفترة باغتت مفرزة من الجمالة يقودها الملازم كوسبي *Gouspy* في "كندلك" ركبا "مجبور" وقتلت منهم ثلاثة رجال.

وفي شهر مارس لحق الرقيب لبورد*Laborde* بعصابة من العلب كانت قد نهبت زهاء المائة من الجمال لقبيلة تجكانت قريـــبا مــن

"سهوت الماء" وقتل منهم ثلاثة رجال وأسر ثلاثة واستعاد السلب.

وفي الشهر الموالي لحق الملازم شميتْ ومعه ١٧ من الجمالة بركب "مجبور" كان قد نهب حيا غير بعيد من "بوتلميت" فأرغمه على مغادرة سلبه.

وفي يونيو نجح ركب (مجبور) مؤلف من ثلاثين من المنشقين قادما من آدرار في الانقضاض على مخيم لكتيبة الجمالة الأولى المستقرة على بعد ٦ كلم من "أخروفة"، وكان أغلب الجمالة غائبا في حراسة الإداري تيفنيو *Theveniaut* المتجه إلى انواكشوط متقدما أمام مفوض الحكومة العامة.

فاستولى الناهبون بغتة على زهاء الأربعين من الجمال بعد أن قتلوا اثنين من الحراس وأخذوا أسلحتهم.

وكان العدد الحاضر من الرجال والجمال لا يسمح بتنظيم عملية مطاردة مباشرة، وعند ما علم الإداري *Theveniaut* بذلك بعث فورا غارة معاكسة مؤلفة من رماة الجمالة في بوتلميت وكتيبة الملازم كوسبي *Gouspy* تحت قيادة الملازم شميت فلحق الملازمان شميتْ وكوسبي بالعصابة قريبا من اتويزكت، وبعد معركة مريرة فر البيضان تاركين قتيلين في الميدان وجميع الغنائم، مدفعا سريع الطلق، والعديد من مطاياهم. واستمرت المطاردة حتى "تابرنكوت" في الحدود الجنوبية لمنطقة آدرار الصخرية، حيث

اضطرت إلى التوقف بسبب ندرة الآبار والرياح الشرقية التي تؤثر سريعا على مؤن الماء.

وانطلق الملازم لابون *Labonne* من بوتلميت على رأس ٣٠ من الجمالة للالتحاق بالملازم شميتْ، فاصطدم في آدرار بغارة من أولاد بالسباع فقتل منهم ٨ رجال واستعاد ٨ جمال. وفي اليوم الموالي قريبا من بئر "بوكطر" هاجم مجموعة من الغزاة من ٨٠ من أولاد بالسباع وأولاد ادليم، وبعد معركة حامية الوطيس دامت قرابة ٦ ساعات هرب البيضان تاركين ١٦ جثة وسبعة مدافع وستة جمال، وقتل منا واحد وجرح اثنان.

وخلال الشهور الموالية تمت مطاردة عصابتين وتفريقهما؛ إحداهما من قبل الملازم *Schmitt* والأخرى من قبل الرقيب جلالي *Brgadier Djillaly*..

هذه السلسلة من العمليات كان لها في موريتانيا صدى بعيد، فهي تعزز الثقة لدى وحداتنا الجمالة الحديثة، وتؤكد الفكرة القائلة بأن الفرق المتنقلة على الجمال وحدها المتمكنة من لعب دور فعال يقابل حركيَّة البداة الناهبين بحركية مماثلة.

البراكنـــة ـ تكانت ـ آدرار

في هذه المناطق لا توجد وحدات الجمالة. فالغزاة (مجبور) يمكنهم أن يجولوا بحرية، ففي البراكنة في فبراير في اليوم الموالي لذهاب العقيد ميشارد *Michard* من ألاك راجعا إلى "بوكي" بعد ما عزز مواقع "تكانت"، باغتت كتيبة فرسان "الرقبة" قريبا من بحيرة "صرك" فيلقا من ٦٠ من الغزاة البيضان الذين منوا بإخفاق تام، وفقدوا نصف عددهم تقريبا، وكان من بين القتلى شيخ الغزاة؛ ولد عساس ابن الأمير السابق. وتفرقت عصابته التي كانت مصممة على الحرب منذ شهور عديدة. ولم يبق إلا عصابة بكار ولد احمياده أمير أولاد نغماش المنشق ولكنه قتله أحد رجاله في "شكار"، وأعلنت الغالبية من عصابته خضوعها.

وباغت الرقيب تويي *Thuiller* على رأس ١١ من الحرس ركبا (مجبور) من إدوعيش وانتزع منهم ١٤ جملا، ومات رجلان من العصابة عند عودتها عطشا لأنهم فقدوا بعضا من مطاياهم.

وفي "تكانت احتلت مفرزة من ٨٠ من الرماة يقودهم الملازم ديفور *Dufour* نخيل "الرشيد" من أجل قطاف التمور ومنعت دخول البدو الرحل إليه.

وفي "كوركول" قاوم أولاد إبراهيم وأولاد غيلان بنجاح، غزوات إيدوعيش وأولاد بالسباع ودحر وهم إلى الوراء مكبدينهم خسائر جسيمة.

وأخيرا في كيدماغا" أُرْسِل النقيب ربو *Repoux* إلى سيلبابي ومعه ٤٠ من الرماة لتهدئة الاضطراب الحاصل في المنطقة في أعقاب محاولة تسميم حاكم الدائرة والحامية.

وفي تلك الأثناء كانت وحدات الجمالة ومفارز المشاة يجوبون البلد في كل اتجاه، يضعون الخرائط ويتعرفون على نقاط المياه.

فاكتملت معلوماتنا عن الأقاليم المحتلة وثرواتها واتسعت دائرة نشاط وحداتنا وانتزع من المنشقين أهم العناصر التي كانت مصدر حمايتهم.

وبعد هدوء ١٩٠٧ أعقبت ذلك الفترة الأكثر اضطرابا في تاريخ احتلالنا، عادت "الصربة" التي كانت قد ذهبت تطلب العون من سلطان المغرب إلى آدرار بعناصر حربية مسلحة جدا، زاد من حماستهم الحربية مواعظ وتحريضات مرابط السمارة.

وكانت ترافقها عصابة من التلاميذ على رأسها الشيخ حسنا بن ماء العينين، المكلف بتنظيم الكفاح والذي أدى المهمة بذكاء وحماس ملحوظ. هذه الجموع المتحركة التي تركتنا في حالة نصف استقرار، منذ أكثر من نصف سنة تستعجل من أجل تلافى الوقت الضائع.

فأعلن الشيخ حسنا الجهاد وأصدر فتوى ـ وهي منشور ديني ـ أن القيام بغزوات ضد القبائل البيضانية الخاضعة لسلطتنا عمل صالح.

فلا يكاد يمضي أسبوع دون أن يشار إلى وجود هذه الجرأة المتصاعدة لأعدائنا في أحد المواقع من الأقاليم التي نحلتها. ولا يكتفي الغزاة بسلب الأشخاص والمواشي لأتباعنا، ولكنهم يهاجمون مفارزنا وقوافلنا ويقطعون خطوط التلغراف.

ويركز المنشقون جهودهم الأساسية في اتجاهين، ذوَيْ خطورة خاصة حسبما يتراءى لهم: موقع "اكجوجت" الذي يمثل إنشاؤه في أعينهم مرحلة أولى من التقدم إلى الشمال، ووحدات الجمالة وخاصة جمالة "تكانت" التي أسسها النقيب مانجان، والتي تشكل تهديدا قريبا في جنب آدرار.

❊ ❊ ❊ ❊

الهجوم على اكجوجت

لقد كان إنشاء موقع اكجوجت سنة ١٩٠٨ سببا لأولى إخفاقاتنا. فالمنطقة التي اختيرت لإقامة هذا الموقع كانت من أهم المناطق، فهي تحمي الترارزة من جهة المنافذ الجنوبية لآدرار، وتهدد مؤخرة الغزاة الذين يخرجون من أوكارهم المعهودة.

وربما كان اختيار محل الموقع غير مريح، إذ يحتل الموقع مركز مسرح لصخور عظيمة تمكن العدو من مراقبة الموقع بسهولة، ومهما يكن من أمر فإن هذا الموقع كان متبوعا بنحس متأصل.

وأسندت قيادته إلى النقيب ربو *Repoux* وألحقت به وحدة الجمالة التابعة للملازم شميتْ.

وفي يناير وفبراير اشتبك الملازم شميت في أم لعويتكات" والنقيب ربو في "اللبه" و"لبيرات" و"اكرارت لفرس" مع مجموعات صغيرة من المتمردين الذين فروا بعد ما تكبدوا خسائر فادحة.

وبعد ما عاد النقيب ربو بصعوبة إلى الموقع علم بأن أمير آدرار ولد عيده جمع عددا كبيرا من المحاربين بهدف الاستيلاء على "اكجوجت"، فغادر النقيب من جديد يوم ١٢ مارس بمفرزة تتكون من الملازم شميتْ والعريفين أرنو *Arno* وكفاجولي *Gaflojoli* مع ٢٨ من الرماة و١٢ من القوم البيضان ودليل، بهدف معاقبة اديشلي الذين يتجسسون لصالح أمير آدرار، وبهدف إقناع القبائل الحائرة بأنه بإمكاننا حمايتهم من ولد عيده. وأخيرا الإشعار بأي هجوم

محتمل لهذا الأخير ودحره إلى آدرار في حال وصوله إلى "يغرف". ووصلت المفرزة يوم ١٣ إلى بئر "تابرنكوت" حيث وجدت آثار معسكر من الترارزة المنشقين في طريقه إلى الجنوب فاستطاعت دورية من القوم اللحاق بالمخيم فتبادلت معه إطلاق النار واستولت منه على ٤ جمال وأخبرت بعض النساء اللائي تُركن في الخلف دورية القوم بوجود معسكرات كبيرة من إديشل في "كالا" و"يغرف" وأن ولد عيده في "جول".

فانطلقت المفرزة يوم ١٤ إلى "كالا" فوصلت إلي هضبة "اكليب لبكر" وبلغت يوم ١٦ في الصباح الباكر "كلات سيتْ" حيث وافت مخيما من التوابير وأخبر هولاء بوجود معسكرين آخرين أحدهما أهل أعمر اكدبيجة إلى الجنوب والثاني من زناكة أولاد آكشار إلى الشمال.

فاتجه النقيب ربو نحو الأول واتجه الملازم شميت مع ثمانية رجال إلى الآخر وتواعدوا عند أكلات الرشبه التي توجد إلى الجنوب قريبا من *Soiet*.

وغزا الملازم شميتْ معسكرا من إيديشل كان في طريقه للالتحاق بولد عيده، وعلم في نفس الوقت نبأ اقتراب هذا الأخير(ولد عيده) الذي يملك زهاء المائة من المدافع. ولعدم شعوره بالقوة الكافية عاد الملازم شميت ووصل إلى الموعد عند الساعة١٣.

وبما أن الدوريات المرسلة جاءت بمعلومات متناقضة، بعث النقيب دورية من ثمانية رجال تحت قيادة العريف كوليبالي وكلفه بأن يغدو إلى مخيم سيتْ ويأتي ببعض البيضان ويقوم النقيب نفسه باستفسارهم.

وفي الساعة١٤ والنصف أشارت فرقة حراسة المواشي إلى وجود مجموعة من البيضان مسلحة بالبنادق قادمة من الشمال الشرقي.

فأدخلت الجمال فورا في الحظيرة واجتمع الرماة والقوم استعدادا لمواجهة الهجوم.

والبيضان في حدود المائتين فيما يبدو، وجزء كبير منهم على الخيل، والباقون على الجمال وكانوا يتقصون أثر دورية شميتْ.

ونزلوا إلى الأرض على بعد ٨٠٠ أو ٩٠٠ مترا محتمين بكثيب صغير وربطوا مطاياهم.

وانقسم البيضان إلى مجموعين، وتقدموا للهجوم، ولما وصلوا إلى بعد ٤٠٠ مترا تفرقت المجموعات وانبطحوا وأطلقوا النار، وقد كان الرماة يستخدمون الأرضية بصورة ممتازة.

وبما أنهم مزودون من الذخيرة بغزارة، بدأ البيضان منذ الوهلة الأولي بإطلاق نار عنيف وكان موجها خاصة نحو الأوروبيين إذ كان البيضان يميزونهم بدقة بفضل حِدَّة أبصارهم.

فجرح النقيب ربو للمرة الأولى في رقبته ومنكبه واستمر يقود المعركة حتى سقط ميتا بفعل رصاصة في جبهته[1].

فأخذ الملازم شميت القيادة وجرح هو نفسه في ذراعه اليسرى وشد عليه المهاجمون الذين كادوا يحيطون به، فحاول القيام بمناورة حربية فأوقف إطلاق النار، وبعد ربع ساعة من ذلك ظن البيضان أن ذخيرة الرماة نفدت. فقاموا وارتموا عليهم، ولكن إطلاق نار سريعا ومحكما طرح عددا كبيرا منهم أرضا، وكسر اندفاعَهم، وأجبرهم على التخفي من جديد. ومنذ تلك اللحظة يبدو أنهم فقدوا تماسكهم وتناقصت دقة طلقاتهم، فانتهز شميت الفرصة للتقدم ميدانيا على جناحهم.

وفي الساعة الرابعة والنصف قام الرقيب أرنو بصد محاولة من مجموعة من البيضان ضد حظيرة الجمال، وفي الساعة الخامسة سمع العريف كولوبالي الذي كان عائدا من "سيت" أصوات المدافع

---

(١) بدأ النقيب ربو في إفريقيا بتنبكتو حيث برهن على قوة مزاجه خلال الحياة القاسية في الصحراء، وكان مجداً في العمل ويستغل أوقات فراغه في دراسة اللغة العربية والقانون ثم ذهب بعد ذلك إلى تشاد حيث كلفه العقيد غورو بقيادة أحد المواقع الأشد تقدما في الحدود مع أوداي وكان دائما منتبها ويقظا وقد هوجم هنالك ومعه أربعون فردا من قبل زهاء الألف من الواديين وبعد ما أوقف العدو الذي لم يعد يستطيع التقدم إلى حرم الموقع تحت وقع ضرباته جرح ومعه خمسة عشر رجلا وبندقيته الصغيرة المخيفة في يده وطرد العدو من القرية وقتل رئيس العصابة عن قرب عشرين خطوة. وبعد ذلك بقليل باغت معسكر الواديين خلال الليل وأيقظهم بإطلاق النار من مائة متر فأصيب العدو بالذعر وفروا تاركين ٨٠٠ حصانا في الميدان. وبعد ذلك بشهور من الراحة ليحصل على درجة في كلية الحقوق غادر ربو إلى موريتانيا.

فهاجم البيضان من الخلف، فحاول هؤلاء التصدي له ولكن عند بداية إطلاق الدورية النار أمر الملازم شميتْ رجاله بالتقدم، فقاوم البيضان لحظات ولكنهم اختشوا على مطاياهم فسارعوا نحوها، وأطلقوا النار وامتطوا مطاياهم وفروا في اتجاه "أطار" فتبعهم بعض القناصة والقوم، وكانت آخر طلقات النار عند الساعة الخامسة والنصف مساء.

جمع الملازم في هذه اللحظة الرماة والقوم وأعادهم إلى الحظيرة جاهزين لكل الاحتمالات.

و كانت خسائرنا :

القتلى : النقيب ربو أصيب أول مرة في بداية المعركة ثم أصيب إصابة قاتلة بعد ذلك بلحظات وقتل أحد القناصة إلى جانبه.

الجرحى : الملازم شميتْ وأحد القناصة.

وخسر البيضان العديد من القواد و١٢ جثة تركت في الميدان وجرح سيدي ولد سيدي المطالب بالإمارة في الترارزة ثلاث جراحات. وحُمل كثير من الجرحى إلى أطار، وسقط بأيدينا ١٠ بنادق و٣٠ جملا و٨٠ ثورا وبعض النعاج والحمير واصطحبناها إلى اكجوجت حيث وصلت المفرزة يوم ١٨.

وفي يوم ٧ إبريل انطلق المساعد جربيرْ *Gerber* من موقع اكجوجت متجها نحو انواكشوط بمفرزة ممن تقرر إعادتهم إلى

بلدانهم، تتألف من ضابطي صف أوروبيين و٢٠ قناصا فضرب معسكرا قرب بئر دامان.

وعند ما كان معظم المفرزة عند البئر قامت مجموعة من المنشقين تخفي أسلحتها تحت ثيابها وتسوق قطيعا من الأبقار لتعطي انطباعا بأنهم رعاة مسالمون، وتمكنت المجموعة من الاقتراب من المعسكر دون أن تلفت الانتباه، فاستولوا على بعض الأسلحة التي غفل عنها القناصة وسارعوا إلى البئر وهجموا على المفرزة التي كان بعض عناصرها غير مسلح، فقتل ضابطا صف أوروبيان وخمسة عشر من القناصة، أو اختفوا واستولوا على ١٦ بندقية وعلى القافلة بكاملها فكانت تضم أغراض النقيب ربو الذي قُتل في اعكيلت الرشبه واعتبر البيضان ذلك انتصارا.

وفي يوم ٢ مايو تمكن المنشقون الذين يرابطون حول موقع اكجوجت في شبكة مراقبة مكثفة من سلب جمال الجمالة، وهو حدث خطير ينقص بنسبة كبيرة فعالية فرقنا المتنقلة وظلت نتائجه تمسنا مدة طويلة.

وبعد ذلك بعشرين يوما كان الملازم أوبيرْ *Aubert* في طريقه من اكجوجت متجها إلى انواكل مع ٤٨ من السنغاليين و٤١ من القوم البيضان فهوجم على بعد ١٥ كلم إلى الجنوب من اكجوجت من قبل فيلق من ٩٠ رجلا من البيضان بينهم ٢٥ من مريدي ماء العينين.

وانتهت المعركة العنيفة بعد نصف ساعة بفضل القتال بالحراب. وقتل منا ٣ سنغاليين وحرج رقيب أوربي جروحا خفيفة كما جرح ٣ سنغاليين و٦ من القوم البيضان وقتل ٧ جمال وجرح عشرون جملا.

وترك البيضان في الميدان ١٥ جثة و١٠ مدافع و١٠ جمال وأسيرا بين أيدينا وواصل الملازم أوبيرْ مسيره نحو انواكل حيث وصل يوم ٢٧ وأخذ قافلة المؤن التي جاء بها الملازم ربولْ *Reboul* من بوتلمت وعاد بها إلى اكجوجت.

ومن ذلك الحين بدأ المنشقون يضيقون الحصار على الموقع الذي ازداد عدد المدافع فيه إلى ١٥٠ بندقية تحت قيادة النقيب بالونْ *Balon* ويستخدمون كل الوسائل لوقف قوافل المؤن والمناوبة.

وأصبحت الحالة شيئا فشيئا مزرية إلى درجة أنه بسبب عدم جودة الماء ونقص في الأغذية أعلن عن تفشي مرض الأرز المعروف ب بربري، ومنذ شهر يونيو أصيب ١٢٠ رجلا من بين ١٥٠.

فكان من المستعجل تزويد الموقع وإخلاء المرضى الأشد إصابة، وفي سبيل ذلك غادر النقيب بيرجي *Berger* انواكشوط يوم ٢٠ يوليو بقافلة من المؤن ومفرزة مؤلفة من الملازمين: سموند *Simond* وأندري *André* ومغنيي *Maugnier* وبولي *Pollet* وأربعة ضباط صف و١٦٠ من الحرس والقناصة و٢٢ من القوم

المناصرين، وكان لديهم احتياطي من الماء في حدود ٢٥٠٠ لترا منها ١٦٠٠ لترا في براميل صغيرة.

وكان الفصل حارا والرياح الشرقية الجافة لا تفتر من الهبوب نهارا ولا ليلا، لتزيد من تعب المسير، وقبل الوصول إلى بئر انورماش هوجمت القافلة من قبل فريق من الأعداء لديهم ٨٠ بندقية. وبعد معركة قصيرة انسحب البيضان تاركين ٦ قتلي و٧ جرحى و٦ مدافع من مدافع الطلق السريع.

وبعد هذه المعارك بقليل اتجه الملازم أندري ومعه بعض من أفضل القناصة نحو بئر انورماش لمطاردة الفريق المعادي، ولكن البئر تم ردمه من قبل البيضان، ويتطلب الأمر ساعات عديدة من العمل للحصول منه على قليل من الماء.

ووصلت المفرزة في اليوم الموالي منهكة جدا والعديد من القناصة لم يتمكنوا من الوصول. بعضهم مات وقت مجيئه إلى البئر بعد ما روَّى غليله، واستأنفوا في اليوم الثاني سيرهم نحو بئر برجيمات حيث قام الملازم أندري بمطاردة عصابات التلاميد التي تقوم بردم الآبار، ووصلت القافلة يوم ١ أغسطس إلى برجيمات، بعد ما أنهكت قواها تماما وفقدت ٢٢ من الرماة و٣٥ جملا بسبب العطش. وكان من الضروري أن تأخذ قسطا من الراحة، ولكن بما أنها كانت تعيش على مؤن القافلة، فهي عندما وصلت إلى اكجوجت يوم ٢٣ أغسطس فإنها لم يبق عندها من المؤن ما يكفى.

والحالة الصحية للحامية في موقع اكجوجت أصبحت شيئا فشيئا أكثر إلحاحا، وتم أخيرا اتخاذ قرار بإخلاء الموقع.

وتمت العملية بفضل رتل من الإمدادات ذاهب من سان الويس يوم ٢ أغسطس تحت قيادة الرائد فريرجان المسلح بما يناهر ٢٠٠ بندقية، ووصل إلى أكجوجتْ يوم ١٠ سبتمبر دون عثرة.

فهُدم الموقع وأخليت الحامية والمؤن والمعدات، وهوجم الرتل الذي قام بالإخلاء في عودته بين اتويزكت وبرجيمات من قبل فريق قوي مؤلف من ٣٠٠ مدفع ولاذ العدو بالفرار بعد ما فقد ٧ من رجاله.

واستمرت فرقة من المفرزة في طريقها إلى الجنوب وبقيت سرية من الرماة وقسم الرشاشات ومجموعة من المناصرين في اينشيري تحت قيادة الرائد فريرجان، لحماية الترارزة التي أصبحت بحاجة إلى إعادة تكوين فرقها الجمالة، ولتشكيل طليعة عند الاقتضاء لعمليات في آدرار أصبحت ضرورتها تلاحظ كل يوم أكثر.

وقد أخلينا أكجوجت بسبب سوء الحالة الصحية للحامية، والبيضان يعتقدون أننا تنازلنا أمام ضغط هجوماتهم، وارتفعت معنوياتهم، واستغل الشيخ حسنا هذا الحدث معتبرا إياه انتصارا على الفرنسيين وكثف من حملاته.

وكان البيضان قد أنجزوا كذلك الجزء الثاني من برنامجهم الذي حددوه لأنفسهم وهو عزل جمالة تكانت من المعركة.

الهجوم على جمالة تكانت

في شهر إبريل تم تشكيل كتيبة الجمالة بتكانت وتكونت تحت قيادة النقيب مانجان مجموعة من ١١٤ من الرماة السنغاليين و٣٠ من القوم البيضان ولدى المجموعة مدفعان رشاشان.

تهيأ النقيب مانجان للخروج إلى البادية منذ شهر يونيو شمال تجكجة، وينتهز فرصة إقامته في تلك المنطقة للتعرف على نقاط الماء الواقعة بين تكانت وآدرار.

وقد كان مُراقَباً عن كثب من قبل التلاميذ الذين كانوا يتتبعون تحركاته وينتظرون بصبر الفرصة الملائمة لمحاولة القضاء على هذه القوة المتحركة التي تؤرقهم، والتي يقودها رئيس بلغتهم شهرته وسمعته[١].

---

(١) ما كاد يذهب الملازم مانجان إلى السودان حتى كان يمشي مسرعا على خطوات سلفه العقيد مانجان قبل أن يكون رفيقا لمرشاه في ملاحمه خلال إفلايقيا، من الأطلسي إلى البحر الأحمر، حيث ربما كان أحد ألمع ملازمي الجنرال أرشنارد عندما حرر السودان من نير السلطة الدموية لأهل أحمدُ والساموري. وكانت أولى عملياته في مقر سيكاسو وبعد خمسة عشر يوما من الإقامة أمام مدينة يبلغ محيطها تسع كلمترات، خيمة من أربعة أمتار في سبعة أمتار وخيمة أخرى داخلية ومحرزان، وعشرة آلاف رجل. وتم الهجوم في الساعة السابعة: مائتان من القتلى والجرحى وكسب مانجان شهرة لقيامه بالمبادرة وللبسالة التي برهن عليها.

ووجدته بعد ذلك بخمسة أشهر في الجنوب يطارد الساموري لالقاء القبض عليه. ثم دخل في الغابة العصية على الدخول، وفي أغسطس ١٨٩٩ تلقى ست طلقات في جسده فتوجه إلى فرنسا وبقي هناك ثلاثة أشهر ثم عاد مباشرة إلى إفريقيا، إلى زيندرْ ومن هنا قام بإنشاء أولى جمالته في هذه المناطق الصحراوية المجهولة والخطيرة

إن أهمية هذه الفرقة النخبوية وما يخشاه البيضان منها ومن رئيسها بودرس[1]، جعلهم يُشكلون سريّة حقيقية تُمثل فيها كافة القبائل من قبل محاربيها المتميزين.

في يوم ١٢ يونيو في الوقت الذي كان الملازم كوسبي *Gouspy* يستعد للذهاب في رحلة تعرفٍ في منطقة "عين لبقر"، ومعه رقيب أوروبي و٣٠ من الرماة و٤ من القوم، وصل رجل من أنْمادي إلى معسكر الجمالة حاملا رسالة. إنه التحدي من أهل ماء العينين يُوجه إلى النقيب مانجان."... لماذا جئت إلى أرض الله هذه... إن شهرتك تجاوزت حدود البلاد ولكننا لا نخافك، نريد أن نقاتلك بوجه

دائما، كما يثبته الحدث الأخير، ودخل مانجان سنة ١٩٠٣ إلى فرنسا، لكنه لم يبق هناك إلا أربعة أشهر، حيث غادر إلى تشاد بمفرزة من مائة رجل فتم تسخيره في الطريق من قبل الحاكم، فغادر في رتْل إلى الكونغو في إقليم أوبنكي فتلقى سهما في فخذه كان هو الإصابة السابعة. ومن ١٩٠٤ إلى ١٩٠٦ كان مع قائده وصديقه بابلون مكلفا بأمن إقليم غانم حيث بهر العرب ببشاشته وحيويته وقيمه واشترك معهم في غزوات كانت مثالا قتل في إحداها فرسه تحته. ثم تقلد برتبة رائد ميدالية ضابط من وسام الشرف ثم غادر إلى موريتانيا ونظم فرقة من الجمالة تجاوزت سمعتها حدود الصحراء إلى الصويرة.

وفي يوم ١٣ يونيو ١٩٠٨، أي منذ سنتين بالضبط، في بلدة "المينان"، سقط جنديا كما عاش كذلك، وحلاَّه أحد قواده الجنرال فيمردْ Vimard بما يلي:" بقوة حبه لرفقائه وقواده ورجولية حيويته وشجاعته اللامعة، إنه حقيق بهذه التحلية حتى وهو ميّت" العقيد غورو.

(١) بودرس الرجل ذو الضرس لقب يطلقه البيضان على النقيب مانجان لأن إحدى أضراسه كانت مذهبة.

مكشوف وبعدد مماثل، أنتم ١٢٠ ونحن ١٢٠ وسنغلبهم بعون الله."

ولكن مانجان لم يكن بالرجل الذي يرتاع من التهديدات، فلم يحاول أن يثني من عزم الملازم غوسبي ومفرزته على المضي، وتوجه هو نفسه ومعه بقية الكتيبة إلى تالمست".

ولكن ماء "تالمست" كان رديئا، وقد أشير إلى وجود بعض المراعي في منطقة المينان" فترك مانجان البيطري أمْيَيتْ *Amiet* ومعه ٥٠ بندقية وقافلة المؤن، وذهب رائدا إلى هذا الموقع على رأس ٣٥ مسلحين ببنادق واصطحب معه الرقيب مغنين.

وكانت الفرصة التي ينتظرها البيضان قد حانت، فلم يكونوا رغم تبجحهم يستطيعون مطاولة الكتيبة مجتمعة، ولكن بحصول هذه التفرقة إلى ثلاثة مفارز لم يترددوا في الهجوم على هؤلاء بصورة تدريجية.

ففي يوم ١٠ يونيو توقف النقيب مانجان حوالي ١٠ كلم غربي "المينان" وضرب المعسكر خيمه ونصب المدفع الرشاش وأطلقت أعِنَّة الجمال إزاء المعسكر.

وأرسل سبعة من القناصة إلى الشمال بحثا عن الماء، وأعطيت الأوامر للمبيطر بأن يلتحق بالمعسكر هو ومفرزته.

وعند الساعة ١٢ زوالا أعطى الحارس المترصد حول المدفع الرشاش إشارة بالإنذار، فأخذ القناصة مواقعهم في المعركة وردوا

بإطلاق النار فورا على إطلاق نار العدو الذي لم يحصل به إحساس إلا بعد أن صار على بعد ٢٥٠ مترا حيث استطاعوا إخفاء سيرهم بفضل كثبان الرمل وباقات كثيفة من العشب.

حاول النقيب تشغيل المدفع الرشاش ولكن شيئا عرقل إطلاق نار السلاح بعد طلقة لقذيفتين، فأصيب مانجان فورا إصابة قاتلة في رأسه وأصيب الرقيب مغنين بطلقة في رقبته وسقط كثير من القناصة إلى جانبهم، واستمر البيضان من الاقتراب وتضييق الحلقة مطلقين النار دون توقف. وبعد ساعة سقط كافة القناصة وأصبح المعسكر فريسة للبيضان الذين أجهزوا على الجرحى واقتسموا الغنائم.

وتم الإبقاء على أحد القناصة الجرحى وأقامه البيضان بعد أن قطعوا رأس النقيب مانجان وجعلوه على غطاء رأس القناص ووجهوه وجهة تجكجة قائلين:"له اذهب إلى النصارى وأرهم ما صنعنا ببودرس.

والتلاميد قبل أن يهجموا على المفرزة كانوا قد قتلوا الرجال السبعة الذين كانوا واردة المفرزة.

وانطلق المبيطر أميتْ يوم ١٣ مساء وكان القناصة الحارسون في المراتع قد سمعوا صوت البنادق كثيفا، ولكن لمدة قصيرة، وتم اكتشاف آثار ثلاثة من البيضان على الجمال كانوا قد جاءوا لمراقبة معسكر "تالمست".

وفي وقت الذهاب كان بعض الحُمر قد ضل فبعث الرقيب "وُولو" ومعه عريف وسبعة قناصة في طلب هذه الحمر.

وفي يوم ١٤ عند الساعة الرابعة صباحا توقفت المفرزة على كثيب صغير يساعد على الدفاع في انتظار لحاق الرقيب وولو".

وتم وضع القافلة في طابور في منخفض وسط هذا الكثيب ونُصب المدفع الرشاش في موقع يمنح الرؤية الجيدة.

وتم توزيع المفرزة إلى ثلاثة رهط في محيط الكثيب، كل رهط يدافع عن قطاع.

وقد تم اتخاذ هذه الإجراءات ببطء بعد ما أشار الحراس إلى وجود مفرزة قوية مسلحة تتقدم نحو الكثيب، وبهدف معرفة ما إذا كان هؤلاء هم جمالة النقيب مانجان مدعومة بجمالة الملازم غوسبي أم أنهم البيضان، بُعث مستطلعون لملاقاة هؤلاء، وعادوا فورا ليعلنوا أنها حركة، وهذه الحركة تتقدم في طوابير مكثفة نحو المواقع التي تحتلها جمالتنا، فحاول العريف صوري كاندي *Sory Kandé* المكلف بالمدفع الرشاش تشغيل الرشاش دون طائل، فلم يعمل الرشاش وكانت جهود الرقيب لاروك *de Laroque* أيضا غير مجدية فيجب التخلي عن محاولة التشغيل.

ويستمر البيضان البالغ عددهم زهاء المائتين في الاقتراب وانقسموا إلى ثلاثة أرتال مشكلين دائرة حول الموقع الذي تحتله مفرزتنا وفتحوا النار بكثافة.

واقتربوا شيئا فشيئا حتى وصلوا إلى ٣٠٠ مترا، واستمرت المدافع بكثافة من الجانبين حتى الساعة ١٢ زوالا. وفي ذلك الوقت أصبح البيضان المزودون بما يكفي من الذخيرة، والمُشجَعون بفضل نجاح الأمس على بعد ١٠٠ متر من قناصتنا.

وكان المرشدون البيضان المختفون وراء الأمتعة يرفضون تزويد القناصة بالذخيرة عند نفاد مؤنهم منها، فانتدبت امرأتان من نساء القناصة وفتحتا أكياس الذخيرة وزودتا خط إطلاق النار فقتلت إحداهما، وحل محلها اثنتان أخريان كانتا قد جرحتا بدورهما.

وبفضل القيادة النشطة للرقيبين إفررد *Evrard* ودلروك *de Laroque* تم دحر جميع المهاجمين، ولكن الوضعية كانت سيئة فمن بين القناصة الأربعين قتل ثمانية وجرح تسعة.

وفي تلك الأثناء كان الرقيب وولو عائدا بالحُمر التي ضلت فسمع صوت المدافع، وقام بتنظيم القناصة الذين معه، وقهر الدخول ونجح في دخول خط البيضان بسرعة ووصل إلى المربع الذي بدأت فيه المقاومة تضعف وألقى بخطام جمله إلى امرأة سنغالية، وارتمى إلى الأرض منشدا لحن الحرب عند البنباره.

وكل الأحياء المُنَشَطِين بسبب هذا الموقف أعادوا ترجيع الغناء بصوت واحد، ويحثهم الوالو، وهُرع أمامهم بالحراب على العدو الذي لاذ بالفرار ولم ينتظر الصدمة.

وكان الرقيب والو المكلف بتجميع الجرحى قد وجد خلال بحثه أحد القناصة كان أسيرا لدى البيضان في المينان ومجروحا جرحا قاتلا في بداية المعركة.

فأخبر هذا القناص قبل أن يموت بأن مفرزة النقيب قد تمت إبادتها.

وبما أنه لا يمكنه معالجة هؤلاء الجرحى المصابين إصابة بالغة، ولم يعد لديه إلا قليل من المؤن ولا ماء معه، قرر المبيطر أميتْ العودة إلى قلعة كوبولاني التي وصلها يوم ١٨ عند الظهيرة، ووصل الملازم غوسبي إلى المكان بعد ذلك بقليل، وذهب في نفس اليوم مع مفرزة تحت قيادة النقيب بونتاه *Bontemps* ليحيي القتلى تحية الشرف في موقع المعركة ويُوصل إلى تجكجة رفات النقيب مانجان والرقيب مغنين حيث سيدفنان.

وكانت خسارتنا في "تالمست" ١٠ قتلى من القناصة وواحد من القوم وامرأة و٩ جرحى من القناصة و٢ من القوم جرحى وقتل ٢٠ جملا خلال المعركة وذعر ١٧٧ جملا بسبب صفير الرصاص وأصوات المعركة وعبرت خطوطنا وندت نحو جانب البيضان.

"في هذه المعركة كتب المبيطر أميتْ: كان تصرف القناصة باهرا فقد أبدوا كلهم صبرا كاد في بعض الأحيان يعتبر مجازفة، وكان بعض منهم بالرغم من الجراح المثخنة مستمرا في المعركة ويبحث عن وسيلة يفيد بها، وأما القوم البيضان الذين تظاهروا بكثير من

الحماس في عملية "تومو سلي" قبل ذلك بأيام، فقد أصيب بإحباط هذه المرة اتجاههم، إذ بدوا أقل إقداما وجسارة بكثير. والصناعُ والرعاة لم يساعدوا، ومثال المرأتين اللتين فتحتا كيس الذخيرة وتبعتهما أخريان كانتا توزعان الذخيرة على القناصة خلال بقية المعركة".

واعتبرت المرأة القتيل والمرأتان الجريحان في عداد سلك فرق إفريقيا الغربية.

وقد حقق البيضان الهدفين الأساسيين الذين اختطا لأنفسهم، وهما تدمير موقع اكجوجت المتقدم[١] وتدمير الفرق المتنقلة.

وشجعهم هذا النجاح، فأصبحت موريتانيا عمليا مكتسحا للغارات التي تهاجم مخيمات الخاضعين ومفارزنا، قاطعة الطرق، سالبة القوافل، مفسدة خطوط الاتصال بالتلغراف، ناهبة الجمال للحيلولة دون إعادة تشكيل وحدات الجمالة.

ولن نذكر هنا إلا العمليات الكبيرة وباختصار. في الرشيد بتكانت استقر الشيخ المسن شيخ كنته محمد المختار ولد حامد الذي خاننا في "النيملان" عندما مر بالعدو أثناء المعركة ومعه ما يناهز ١٥٠ بندقية وتحصن في هذا القصر القديم الذي أصبح ملاذا للناهبين في المنطقة.

---

(١) أخلي طواعية كما ذكر أعلاه بسبب الحالة الصحية المتدهورة للحامية

تم دعم وتعزيز تجكجة بإرسال كتيبة من الفرقة المؤلفة من السنغاليين الأوائل (النقيب مالا فوس *Malafosse* والملازم أترانشاه *Tranchant*) ومفرزة من قناصة المجرية (النقيب كامي *Camy*) (الملازمان مركني *Marquenet* و*Schet*) وقسم مدفعية *Btn* وكتيبة من الفرسان.

وفي يوم ١٠ أغسطس قام فريق من ٤٠ من البيضان الناهبين وساق من حوالي نخيل قلعة كوبولاني ٢٩ جملا و٥٠ بقرة و٢٥٠ نعجة أو ماعزا وانبرى في أثرهم فورا النقيب بوتان والملازم مركني لمطاردتهم ومعه ٢٠ من القناصة وكتيبة من الفرسان، وبعد ما وصلوا إلى قلعة كوبولاني في الصباح لحقوا هذا الركب بعد ساعتين من السير الحثيث، وقتلوا منهم ٥ رجال واسترجعوا كل الغنائم، وأصيب الملازم لابييرْ *Labrière* قائد الفرسان بضربتي عصا في رأسه من قبل أحد البيضان الذي صرعه الملازم بمسدسه، وأصيب رقيب المدفعية فيلامين*Villemin* في قدمه اليسرى التي اخترقتها رصاصة.

وفي يوم ١٦ تهيأ رائد الكتيبة *Chambert* قائد كتيبة موريتانيا ودائرة تكانت للهجوم على قصر الرشيد ومعه الفرق التي جاءت للدعم والمذكورة أعلاه وانضم إلى هؤلاء ٨٥ قناصا من فرقة تجكجة (النقيب بوتاه والملازم ديفور) وأرغمت نيران مدفعية الكتيبة العدو على إخلاء كوخ محمد المختار شيخ كنته، ومن ثم إخلاء كافة أكواخ القصر. وبعد ٥ ساعات من القتال اختفي العدو

وراء الهضاب الصخرية، وقتل منا قناص واحد وجرح ضابطا صف أوروبيان المساعد جرموريني *Germorini* والرقيب باسكتن *Pasquetin* و٦ قناصة جروحا طفيفة.

وغادر الرائد شانبرْ يوم ١٩ إلى تجكجة تاركا النقيب كامي ومعه كتيبة من الفرسان و١٧٠ قناصا في الرشيد للتأسيس والتعرف على البلدة.

وفي لبراكنة في يونيو باغتت عصابة يقودها ولد اديد ابن عم أمير الترارزة ـ الذي كان أحد ألد أعدائنا في الجنوب ـ خلال القيلولة قرب "العزلات" مفرزة كانت تحرس قافلة بقيادة رقيب مدفعية من السكان الأصليين، فقتل رجال الحرس ونهبت القافلة وطعنت البغال بالخناجر.

وفي يوم ١٥ أكتوبر هوجمت قافلة من زهاء ٥٠٠ ثور حاملة المؤن إلى المجرية تحرسها مفرزة من ٥٠ مدفعا بقيادة الرقيب ألارد *Allard* في بلدة لتفتار، من قبل كمين من ١٠٠ من البيضان، وبعد ساعة من القتال، قتل الرقيب و٤ من القناصة وانسحب البيضان بعد ما فقدوا ١٣ من رجالهم، ولكنهم استولوا على قافلة الثيران بكاملها تقريبا.

وفي يوم ٢٦ نوفمبر قريبا من لتفتار، هوجمت فرقة تعمل على توصيل خطوط التلغراف، ففقدت ٧ من رجالها وجرح اثنان جراحا بالغة، وفقدت ٩ بنادق خفيفة.

وبالقرب من كيفه هوجمت الجمالة من قبل عصابة من أولاد غيلان، ولكن الملازم باكتْ *Paquette* رد بسرعة وشجاعة، وأرغم البيضان على الفرار بعدما حمل عليهم بالحراب، وانبرى في مطاردتهم، فقتل من البيضان اثنان وخمسة جمال وغنمت بندقية.

وفي الترارزة منينا بخسائر فادحة. في يوم ١٦ أكتوبر انطلق الملازم دَسُلير *de Solère* من بوتلميت في مطاردة غارة أشير إليها في ناحية سهوت الماء، وكانت مفرزته مؤلفة من مساعد أوروبي ورقيب مدفعية جزائري و٢٧ سنغاليا و١٢ من القوم. تم تقصي آثار الغارة ومتابعتها، ولكن المفرزة لم تجد الماء الصالح للشرب في سبخة "انشليت" فقرر الملازم السير إلى بئر ملحس. فكان القناصة الذين وصلوا حديثا من ساحل العاج غير متعودين على شقاء الصحراء، فتدهورت معنوياتهم بسبب العطش وبدوا غير منضبطين. والمساعد برارد *Bérard* الذي يقوم بأول رحلة تعرف في المناطق الصحراوية يساهم بمواقفة في هذا الإحباط.

وأشعر الأدلاء بأنهم ضلوا ولم يعد باستطاعتهم العثور على الآبار. فغادر المساعد براردْ المفرزة ومعه بضعة رجال ووجدت جثثهم بعد ذلك بين ثنايا الكثبان. وكانوا قد ماتوا جميعا بسبب العطش[١].

---

(١)الموت بالعطش: لدينا شهادة بارتْ الذي عثر عليه وهو يحتضر في أتريبو ليتاني ولدينا شهادات العديد من الضباط والعديد من الأوروبيين والعدد الهائل من السكان الأصليين الذين وجدوا في حالة الخور مع نصف الوعي التي تسبق النهاية =

وكان الملازم ديسليرْ *de Solère* وبقية المفرزة قد أنهكوا تماما، ورقيب المدفعية جلالي *Djilally* وأربعة من القوم البيضان الباقين ربطوا الملازم على ظهر الجمل وأركبوا القناصة الثمانية الذين لايزال بإمكانهم متابعة السير، وذهبوا في كل وجهة في اتجاه "شكار"، وبقي ٥ سنغاليين في الطريق ولم يسلم الملازم والسنغاليون الثلاثة إلا بفضل ملاقاتهم مصادفة جملين محملين بالقرب المملوءة بالماء.

= مباشرة. وكل حكاياتهم تؤكد بعضها البعض، أولا يوم، يومان قبل معاينة الكرب المرعب والهلع العميق المغذي للحقد الشديد الذي يجعل الرجل أحيانا ينقض على رفقائه... ثم الألم الذي يأتي شيئا فشيئا... تجف الشفاه والأفواه والحناجر... والمعدة والأمعاء تتقلص وتمتد ببطء والحروق الداخلية الحادة، ثم الحروق في الوجه واليدين والصدر... وآلام غير محددة تجعل العصب يصرخ وكذلك العظام وتزداد خلال ساعات من خلال دفعات مفاجئة تتلوها تهدأة بطيئة، ضغط في الرأس والدماغ... وأخيرا الحمى بعنف سريع مصحوبة في بدايتها بقشعريرة ثم الخور ثم الاضطراب المتزايد وحينئذ تبدأ الآلام تخف والحركات للاارادية العميقة تتوقف ويمتد الفخذان والرغبات اللاهثة المنهوكة لم تعد تطلب شيئا ولم تعد تحس بالعطش ويبدأ الهذيان ويُسمع طنين كعلامة على التنويم بلكلور فرم بواسطة موجات صوتية طويلة حيث ينتاب شعور بحضور لا نهائي وبانسجام من الأصوات المصادقة وتتجمع الصحراء بكاملها لترقبك وأنت تموت، وأنت في عالم جديد حيث يهاجمك ما يشبه البعوض فتطرده ويعود بعض الذكريات التافهة والغريبة من الحياة الدابرة.
إن المنتشلين من العطش ألئك الذين وجدوا وهم يحتضرون وأعيدوا إلى الحياة دون أن نسقيهم ولكن بإدخال قطرات الماء قطرة قطرة بواسطة بلِّ قطع القماش في أجسادهم الجافة، هؤلاء بعد عودتهم إلى الحياة وبعد أسابيع طويلة من الصرع التام لم يستطيعوا أن يقولوا أكثر من ذلك وهذا كل ما نعلمه عن موت الصحراويين (هنري دكرلس في عبور إفريقيا)

فكان هو والجلالي وأربعة من القوم البيضان فقط الذين بقوا أحياء من المفرزة.

وفي الترارزة الغربية غادر الملازم ربول *Reboul* نهاية شهر نوفمبر من "المذرذرة" ومعه فرسانه بحثا عن غارة على رأسها ولد اديد الذي نهب لحينه حيًا من تندغة. وتوغل الملازم إلى الشمال سالكا مع افطوط الساحلي حيث لحق بالغارة عند بئر لكويشيش.

فقام هذا الأخير بالحفر فورا في الكثبان المشوشة لتلك الناحية حيث لا يمكن القتال على الخيل.

ونزل الفرسان إلى الأرض ولكنهم قليلوا التمرن على المعارك أرضيا، ومربكون بسبب أخفافهم التي تجعل تحركهم على رمال الكثبان صعبا، ولا يمكنهم أن يثبتوا أمام عدو يفوقهم خمسة أضعاف في العدد، ويعرف جيدا كيف يستخدم الأرضية. فقُتل الملازم واثنا عشر من الفرسان، فقام رقيب المدفعية بجمع الأحياء ونجح في الانحراف واستولي البيضان على ١٦ حصانا مسرجا و١٨ سيفا و١٤ بندقية خفيفة.

وفي يوليو في انواذيبو تم نهب التاجر م.روكلس *M.Raucoules* من قبل مجموعة من البيضان الذين دخلوا مخزنه ليلا.

ولكن وصول الرماة جعلهم يفرون فلحقهم الملازم برتومي *Berthomé* على رأس جمالة ففرق جمعهم واستعاد سلبهم.